سلسلة : القراءة النفسية للأدب




# قراءة نفسية فى بعض إبداعات نجيب محفوظ

دكتور
**محمد حسن غانم**
جامعة حلوان - قسم علم النفس

المكتبة المصرية
٣ ش أحمد ذو الفقار - لوران الإسكندرية
تلفاكس: ٥٨٤٠٢٩٨ / ٠٣ / ٠٠٢
محمول: ٠١٢/٤٦٨٦٠٤٩

سلسلة : القراءة النفسية للأدب
العدد ( ٤ )

# قراءة نفسية في بعض إبداعات

# نجيـــب محفــوظ

دكتور
محمد حسن غانم
جامعة حلوان - قسم علم النفس

٢٠٠٤م



# محتويات

# إبداعات نجيب محفوظ

- ١ -

# اللص والكلاب

# ديناميات صور السلطة لدى المسجون

## دراسة تحليلية لرواية لنجيب محفوظ

## " اللص و الكلاب "

د. محمد حسن غانم *

### مقدمة الدراسة

" تعد السلطة من الموضوعات الأساسية التي تلعب دوراً مهماً في حياة كل فرديم فكما أن الفرد لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الآخرين ، بل لابد له من التواجد مع الآخرين بدرجة ما ، و حتى في حالة الحضور الفعلي للآخر – كما بين ذلك التحليل النفسي – نجد الفرد يتواصل مع الآخر على المستوى المتخيل المتهلس يم** (٢٦:١).

كما أن غريزة الاجتماعي هذه تلازمه منذ خروجه إلى الدنيا حتى رحيله عنها ، فما هو نفسه إلا وليد اجتماعي بين ذكر و أنثى من الناس ، و هو يدخل منذ ولادته فيما يكونان من مجتمع صغير هو الأسرة ، لأنه محتاج إلى رعاية الأم و كفالة الأب ، فإذا بلغ أشده و أستوي فيما بعد – ضرب في الأرض سعياً وراء الرزق مختلطاً بغيره من الناس في ذلك

---

* مدرس بقسم علم النفس – كلية الآداب – جامعة حلوان .

** يشير الرقم الأول إلى رقم المرجع في قائمة المراجع ، و يشير الرقم الثاني إلى صفحة المرجع و هكذا في بقية الصفحات .......

– نشرت هذه الدراسة في مجلة فكر و إبداع ، العدد (٤) ديسمبر ١٩٩٩م

المجـــتمع الأكبر متبادلاً و إياهم النفع من مجموع ما يبذل و يبذلون من نشاط (٦٦:٢٧).

كذلك استتبع وجود الفرد مع الآخرين و خضوعه للسلطة التي تقوم بدور مهم ورئيسي في عملية التشريع و الضبط الاجتماعي " و الذي وحج كقـــوة فعالـــة في تنظيم السلوك الاجتماعي و الثقافي في الأشكال الأكثر بدائـــية وقدماً للحياة الإنسانية فكما أن الفرد محاط بالغلاف الجوي يم فهو أيضاً محاط من الميلاد إلى الوفاة بالضبط الاجتماعي الذي ربما لا يكون مدركاً ما لم تقوده تجربة غير عادية للتعرف ". (١:٦).

و يكاد يجمع علماء النفس اليوم على أن السنوات الخمس الأولى من عمـــر الطفل تلعب الدور الحاسم و الرئيسي في تشكيل شخصيته و فيها توضـــع بـــذور الصحة و المرض و ليس هذا فحسب بل " لقد اتضح أن العواطف و الاتجاهات الأولى التي تتكون لديه في هذه المرحلة ذات أثر عمـــيق بارز في تعيين موقفه من المجتمع و في تشكيل نذرته العامة إلى الدنيا .

فمن نشأ في بيئة عدوانية لم يشعر بالصداقة أينما ذهب ، و من نشأ علـــى تربـــية قوامها الاستغلال و سوء المعاملة توقع هذا من المجتمع و تصرف وفقاً لما يتوقعه منه المرحلة مما يحول دون حبه و احترامه وجد كـــل صـــلاته بالكبار ، أو من يمثلون السلطة أو النفوذ – صلات عثرة يغشاة التحدي أو العدوان (٤: ٦١) .

و إذا نظرنا إلى الفرد وجدناه بحكم فترة طفولته الكبيرة نسبياً يكون أكـــثر اعـــتماداً على والديه و من هم أكبر منه في معيشته ، فنحن نعتمد

علـــى الكـــبار في إطعامنا و في حمايتنا من كافة الأخطار التي تحيق بنا "قتـــبعاً لمـــدة طفولتـــنا الطويلـــة ، نحـــن جميعاً نتعلم بعض التصرفات الاعـــتمادية الخضـــوعية ، و لكن نظراً للخبرات المتنوعة فنحن لا نتعلم جمـــيعاً تصرفات واحدة فالأم هي مصدر السلطة بالنسبة للطفل ، و هي أيضـــاً لإشباع حاجاته و أول موضوع لحبه و الاستمالة – لا الإجبار – كما يقول مورتن Morton – هي أساس السلطة " (٣٠ : ١١٠).

كما أن السلطة الوالدية تعد أول مصادر التشريع في واقع الفرد ، تلك التـــي يســـتدمج صورتها الطفل و يتوحد بأوامرها و نواهيها في البدايات الأولـــى لوجـــوده و القمع الذي يمارسه الأباء على أبنائهم إنما يعبر عما يستشـــعرونه من قهر الواقع الاجتماعي لهم و من ثم ينتقل عبر عمليات التنشئة الاجتماعية إلى الأبناء (٢١ : ٤٠ ).

و قـــد استنت لهذا المجتمع مجموعة من القوانين على جميع الأفراد الالـــتزام بها ، و من هنا فإن الخروج على هذه القوانين يعد جريمة لأنه هدم ، أو عدم اعتراف بسلطة المجتمع . (٣ : ٢٤٦ ).

و العلاقـــة بين السلطة و المجرم علاقة جدلية عدائية ، لأن السلوك الإجرامـــي ما هو إلا سلوك مضاد للمجتمع ، أو الفرد بارتكاب الجريمة إنمـــا يقـــع مباشرة في قبضة ، أو في مواجهة سلطة المجتمع التي تسعى جـــاهدة إلى وسيلة الردع " و قد أمكن فصل فئة من الجرائم تكشف عن حساســـية مرتكبـــيها حيال كل ما يمثل النفوذ أو السلطة ، و يكون الدافع الرئيســـي لهـــا كراهية لا شعورية نحو الأب نجمت عن حل غير موفق للصراع الأوديبي لكنها لا توجه مباشرة إلى شخص الأب ذاته بل تزاح و تـــنقل فـــي صورة تمرد أو عدوان على كل ما يمثل سلطة الأب و قيوده

على الرؤساء ، و هؤلاء لا يطيقون السلطة في أي مظهر من مظاهرها ، و ليس هذا بمستغرب إذ من الثابت أن العدوان إن حبه على المعتدى اتجه إلـــى بديـــل عـــنه ، إلـــى رمز له ، و كبش الفداء في حالتنا هو السلطة (٢٤/٨٣ : ٨٤) .

و قـــد تم الاتفاق على أن يكون السجن هو المكان الذي يتم فيه عزل هؤلاء الأفراد المجرمين بهدف إصلاحهم ، أو تهذيبهم ، أو حتى إيلامهم حـــتى يعـــودوا – بعد قضاء مدة العقوبة ، أو الإصلاح – مواطنين غير عدوانيين تجاه المجتمع و مؤسساته . (٢٦ ، ٣).

و الســـجن يعـــد " كمجتمع مغلق يحتوي بداخله على عدد كبير من البشـــر يخـــتلفون فـــي الأعمـــار و الجرائم و المستويات الاقتصادية و الاجتماعـــية ، و لكـــنهم في النهاية يعيشون معاً و يجمعهم لقب مذنب أو محـــبوس (٨ ، ١). و نحـــن علـــى قناعة بأنه " لم تعد مهمة الباحث في ميدان الجريمة أن يدين المجرم أو يعاقبه ، أو يصدر عليه حكماً أخلاقياً ، بـــل أصـــبحت مهمـــته أن يبحث في أعماق المجرم ، أو يعيد النظر في ســـلوكه مبـــتدئاً بفكرة أنه إنسان فقد توافقه مع نفسه و جماعته ، و لجأ للجريمة حتى يستعيد هذا التوافق المفقود (١٦ ، ١ ).

و الواقـــع أن الدراســـات النفســـية التي تناولت الأعمال الأدبية جد قليلة ، بالرغم من أن العديد من علماء النفس قد اتجهوا إلى فهم شخصية مجـــتمع من المجتمعات بطرق متعددة أبرزها دراسة الإنتاج الأدبي الذي ينهض على مسامة مفادها أن الإنتاج الأدبي لشعب من الشعوب لابد و أن يعكس الأدبي طبيعته الطابع القومي لذلك الشعب (١٥ ، ١٢٠ : ١٢١) .

إضافة إلى أن العمل الأدبي – كما يذهب فرويد – ينطوي على لب أو جوهـــر الوجـــود البشـــري . و الذي يتم تطويقه وفقاً لظروف الواقع الاجتماعـــي ، و يرى أن درجة شيوع أو انتشار العمل الأدبي ، أو الفني هـــي مقياس لقدرة هذا العمل على التعبير عما هو مشترك بين الكاتب و جمهوره ( ١٤ ، ١٣ ).

و المعلوم أن الأدب يسبق علم النفس في كشف مجاهل الإنسان هذه حقـــيقة بديهـــية إذا أن إنجازات الأدب من رواية و قصص و أساطير و مسرحيات و أشعار بل و حتى خرافات قد فتحت المجال لدراسة الإنسان من حيث هو إنسان . و هذا إقرار سيجموند فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٦) .

حيـــث يقـــول : "الفـــن كما نعلمه منذ أمد طويل يمنحنا ألواناً من الرضـــى تعوضنا عن أقدم ألوان العدول الثقافية و هذا لا يعادله شئ في تحقـــيق المعالجة و التوافق بين الإنسان و التضحيات التي ضحى بها من أجل استمرار الحضارة (٣٣ : ٢٠ ).

لـــذا فـــإن فرويد S.Froud – يخلع نوعاً من القداسة و الأهمية على العاملين في مجال الإبداع إذ يقول : " الشعراء و الروائيون يعرفون بين السـماء و الأرض كثـــيراً من الأشياء التي لم تزل حكمتنا المدرسية لا تســـتطيع الحلم بها ، فهم أساتذتنا – نحن البشر العاديين – في فهم النفس لأنهم ينهلون من منابع لم نجعلها قابلة للإدراك العلمي بعد (١٧ ، ٢٩ ) .

و إذا فقـــد وضـــع سيجموند فرويد فلسفة خاصة لفهم الإنسان من خـــلال الفـــن فـــتعامل مع التراث الإنساني تعامله مع الكائن البشري في طفولـــته ( البدائـــية ) . و تطوره في اتجاه الرشد و ما يصيب حياته من

ضـــروب القلــق التي تبعث على الكبت و تدفع إلى تطوير ميكانيزمات دفاعية أخرى يمكن استثمارها في عالم اللعب الطفو لي و أحلام اليقظة و الــنوم ، و إذا فــإن سيجموند فرويد يرى أن ثمة بنيه مشتركة بين أحلام اللــيل النموذجــية ، و بعض الآثار الأدبية باعتبارهما نشاطاً لا شعورياً يهدف إلى إشباع مقنع لرغبة مكبوتة (١١ ، ٢٦ ، ٢٧ ).

و الواقع أن ما حفزني إلى القيام بهذه الدراسة أمران :-

**الأول** : لــم نعــثر علـــى دراســـة قــد تناولــت هذا الجانب الثرى ( صـــورة الســلطة لــدى المســجون ) مــن خلال التناول الســيكولوجي لعمــل روائـــي و بالــتحديد لرواية اللص و الكلاب ، و التي تمثل – بحق – ثراء في تناول علاقة الفرد بالسلطة .

**الثانــي** : أن نجيــب محفوظ قد ذهب إلى القول بأن " تجربة اللص و الكلاب تستحق أكثر من دراسة لأنها الوحيدة في أعمالي التي يــتعرف الــناقد و القارئ العادي فيها على العمل الصلي و العمل الفنى معاً ، فنستطيع أن نرى كيف تناول العمل الفني الحقيقة و أعاد خلقها لأهدافه الخاصة (٢٥ ، ١١٩) .

إذ مــن المعــروف أن شخصية سفاح شهير آنذاك هو الذي أوحى لنجيــب محفــوظ بــرواية " اللص و الكلاب " . متحدثاً و مثيراً لقضية الصـــراع الأبدي و المتجدد بين الفرد و السلطة و التي لا يستطيع الفكاك من تأثيراتها عبر مراحل حياته المختلفة.

## مشكلة الدراسة و أهميتها :

تتحدد مشكلة الدراسة في تتبع ديناميات صورة السلطة لدى المسجون من خلال التحليل النفسي لرواية " اللص و الكلاب " لنجيب محفوظ. ذلك لأن الأدب في أوسع معانيه ما هو إلا تصوير دقيق للنفس الإنسانية ، و لذا فإن الأدب الإنساني الرفيع و الراقي لا يقتصر على التجربة الشخصية للأديب ، بل لابد و أن تندمج معها – و فيها – تجارب تاريخية و أسطورية و اجتماعية بل و حتى خيالية مما يجعل مفهوم الأدب – بحق – يتسع ليعبر عن جوهر الوجود الإنساني (٢٤ ، ٧ ، ٢٦)

كما أن علاقة التحليل النفسي بالأدب قديمة جداً من ناحية ، ووثيقة جداً من ناحية أخرى ، و أن فرويد يعترف – في أكثر من موضوع – بأنه تعلم من دوستوفيسكي ، و سوفوكليس ، و غيرهما من أساتذته من الأدباء لأنهم أدركوا بحسهم الأدبي و بصيرتهم الفنية ما انتهى هو إلى تقريره بمناهج البحث العلمي (٢٣ : ٢٢ ).

## أهداف الدراسة : تهدف الدراسة إلى :

١- التعرف على ديناميات صورة السلطة بأشكالها المتعددة كما يدركها بطل رواية اللص و الكلاب لنجيب محفوظ .
٢- التعرف على العوامل و التفاعلات التي قادت إلى هذه الصورة العدائية تجاه كافة أشكال السلطة.
٣- التعرف على مدى سواء أو عدم سواء بطل رواية اللص و الكلاب لنجيب محفوظ من خلال محكات الصحة النفسية.

## الدراسات السابقة

**يمكن عرض الدراسات السابقة على محورين :-**

**المحور الأول** : الدراسات التي تناولت علاقة المجرم بالسلطة :-
يوجد العديد من الدراسات نذكر منها دراسة المركز القومي عن الاستجابات الإدراكية لدى الأحداث الجانحين (١٩٦٥) و مقارنتهم بالأحداث الأسوياء ، و معرفة مدى التحريفات الإدراكية من خلال جهاز (التاكستوسكوب ) ، و قد وجدت دلالات إحصائية بين الاستجابات العدائية لكلمات السلطة و مترادفاتها مقارنة باستجابة الأسوياء ( ١، ١٩٦٥) .

و إذا كانت هذه الدراسة قد أجريت على الجانحين الأطفال ، فإن العديد من الآراء و الدراسات قد أثبتت أن إجرام الكبار ما هو إلا امتداد لإجرام قد تم إبان مرحلة الطفولة المبكرة (٣٥ ، ٣٦) .

و تعد دراسة شكرى عبد العظيم عن السجن – دراسة في ديناميات الجماعة (١٩٨٤) ، و قد توصل إلى العديد من النتائج أهمها النظرة العدائية من المسجون إلى رموز السلطة داخل السجن مثل الضباط ورجال المباحث ، أما الموقف من الحارس فقد تباينت اتجاهات المسجونين تجاههم . فالحارس إما مجرد خادم أو "طربوش " (أي لا فائدة منه ) ، أو قد يكونون معهم علاقة قوية ، أما الموقف من المجتمع فيكون أكثر عدائية ، و كذا حب الكراهية الشديدة تجاه كافة أنواع السلطة ، إضافة إلى الموقف العدائي من القانون و من يقومون بتطبيقه ( ٨ ) .

أمـــا مجـــدة أحمـــد محمـــود ( ١٩٨٥) فقد تناولت الفردية و الانـــتماء ، و قـــد لخصـــت نتائجها في ثلاثة أبعاد و هي : العلاقة بـــالذات ، العلاقـــة بالآخر ، العلاقة بالسلطة و قد وجدت أن السلطة تأخذ أشكالاً ثلاثة هي : صورة السلطة العدوانية ( المهدرة )، صورة الســـلطة المهيمنة ( المتسلطة ) ، صورة السلطة التابعة ، أو المناوئة بخطـــط و أهـــداف غـــير قومية ( ٢١ ) ، و تناولت دراسة مجدي حســـن / و حمدي أحمد مكاوي ( ١٩٨٩) خصائص مرتكبي السلوك الإجرامـــي من الزاوية السيكوبيولوجية ، و قد توصلا إلى العديد من النتائج منها أن مرتكبي السلوك الإجرامي هم (مرضى ذكور مودعين بالمستشـــفى العقلـــي بالخانكة ، و إناث مودعات بدار الإدمان بتهمة ممارسة البغاء ، و أحداث منحرفون مودعون بمؤسسة عين شمس . يقل متوسط ذكائهم عن متوسط ذكاء الأسوياء بشكل دال، و أن نتائج رســـم المـــخ بالنســـبة لعينة المرضى العقليين قد أشارت على وجود اضطراب في النشاط الكهربائي للمخ (٢٢ ، ١٩ :٢٨) .

و دراسة سميرة شحا ته (١٩٨٠) . و التي تناولت العلاقة بين تصـــور الذات و تصور البيئة لدى الجانحات و قد توصلت إلى نتائج أيـــدت فروضها من حيث أن اضطراب صورة الذات قد أسهمت في اضـــطراب تصـــور الجانحـــة لكافـــة رمـــوز السلطة و البيئة التي تحيا فيها ( ٥ ) .

و تناولـــت دراســـة عادل صادق (١٩٧١): القتلة المصريين و بأكـــثر من أداة سواء أكانت سيكومترية أم كلينكية ، أم طبية . و قد توصل إلى العديد من النتائج و التي تؤيد حقيقة أن اضطراب الفرد ما

هــو إلا انعكاس لاضطراب البيئة التي يعيش فيها الفرد و هو امتداد للعلاقة الديالكتيكية بين الفرد و بيئته (١٣) .

تناولــت دراســة محمد حسن غانم (١٩٩٠). ديناميات صورة الســلطة لــدى المســجون ، حيث قارن بين خمس فئات إجرامية : النشــل / السرقة / القتل / البغاء / القوادة . و مقارنة نتائجهم بنتائج فــئة الأســوياء فيما يتعلق بالسلطة ورموزها. و قد وجد زيادة نسبة الاســتجابات العدائــية بدرجــة ملحوظ في الفئات المسجونة الخمس مقارنة بفئة الأسوياء ( أي الذين لم يرتكبوا جرائم و بالتالي لم يصدر في حقهم أي أحكام تحتم دخولهم السجن ). (٢٦) .

أما عن الدراسات الأجنبية في هذا الصدد فنذكر دراسة باركلي و جاليمو الذين تناولا بالدراسة المناخ الأسرى لسرة بغي ، و قد توصلا إلى عدة نتائج منها سوء العلاقة بالأم ، أو أن هناك تصدعاً داخل هذه الأســرة ، و أن هــذا المــناخ الســئ قــد قاد على النشاط البغائي (٣٢ ، ١١٣) .

ودراسة جان ما عن السلوك المنحرف الذي تناول فحص نشاط القواديــن . و العوامــل التــي تدفعهــم إلــى ذلــك ، أو فحــص المــناخ الأســرى ، و طبــيعة العلاقــات و الإدراكات المتبادلة (٣٤،٣٢،٢٠:٢١٧) .

## المحور الثاني :-

## دراسات تناولت بالتحليل النفسي أعمال نجيب محفوظ:

إن الاهـــتمام بنجيب محفوظ قد زاد بعد حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ . و لعل أهم الدراسات التي تناولت أعمال نجيب محفوظ : -

دراســـة أحمـــد خيري حافظ (١٩٨٥). عن "سيكولوجية الأخر عند نجيب محفوظ " من خلال رؤية التحليل النفسي و بعض الفلسفات الأخرى منهياً إلى أهمية الحوار مع الأخر ، و أن الأخر إذا كان مضطرباً فإنه بلا شك سوف ينعكس على ذات الشخص (٢٠٥:١٩٩،٢) ، و دراسة لطيفة الزيات (١٩٨٩). عن الجديد في اللص و الكلاب ، و الشكل الروائي عند نجيب محفوظ من اللص و الكلاب إلى ميرامار و هي عبارة عن مقالات نقديـــة تهـــتم بأدب نجيب محفوظ و لكن من ناحية التكنيك المستخدم في الكـــتابة ، حيـــث اســـتخدم نجيب محفوظ تياراً لوعي ، ذلك التيار الذي اســـتخدمه " جـــيمس جـــوس Jamas Joyce و فرجينيا وولف Virginia Woolf

بيد أن الجديد في دراسة اللص و الكلاب هو أن نجيب محفوظ قد أن نجيـــب محفـــوظ قـــد عمـــم استخدام هذا الأسلوب فبدت روايته و كأنها إحـــدى روايـــات مجـــرى الشـــعور ، و بعـــد اتجـــاه جديداً في الأدب (٥٦:١٨،٣٣) .

و دراســـة مصـــري حنورة (١٩٩٠). عن مربع العبقرية في مســـيرة نجيـــب محفوظ الإبداعية حيث ينتهي إلى القول إن العبقرية الإبداعية تتحقق حينما تلتقي في قمة مكعب ارتقاء الأديب ، أو المبدع

عموماً و الأبعاد الأربعة هي : البعد المعرفي ، البعد الوجداني ، البعد الجمالـــي ، أو التذوقـــي ، البعد الثقافي الاجتماعي . و يرى أن هذه الأبعـــاد الأربعـــة قـــد تفاعلت مع بعضها البعض عند نجيب محفوظ (٥٦:٣٣،١٩).

و دراسة عبد الرحمن أبو عوف عن "الرؤى المتغيرة عند نجيب محفـــوظ (١٩٩١) حيـــث تناول الزمن الروائي (١٠) ، و الدراسات النفســية التـــي تـــناولها يحيي الرخاوي لبعض أعمال نجيب محفوظ منها : فيضان الوعي في : رأيت فيما يرى النائم ، و القتل بين مقامي العـــبادة و الدم في ليالي ألف ليلة ، و دورات الحياة و ضلال الخلود في ملحمة الحرافيش (٣١) .

و من الدراسات الأخرى دراسة عبد الله السيد عسكر عن غياب الأب الرمـــزي – دراسة في التحليل النفسي لرواية الطريق (١١). و كذا دراسته عن : الصدام الأيديولوجي و هوية الذات ، و دراسته في التحليل النفسي برواية قلب الليل لنجيب محفوظ (١٢).

## تعليق عام على الدراسات السابقة :

مـــن خـــلال عرضـــنا للدراسات السابقة اتضح – فيما يتعلق بالدراســـات التي تناولت علاقة المجرم بالسلطة – أن هذه الدراسات كانت ميدانية و تناولت بعض الفئات الجانحة. أو المجرمة حيث قادتها الجريمة إلى الوقوع في براثن السلطة و من ثم فقد أظهر أفراد عينات الدراســـة – بغض النظر عن طبيعة الجريمة – النظرة العدائية التي يكـــنونها الســـلطة ، خاصـــة ســـلطة البوليس و الشرطة و السلطة

القضـــائية . كمـــا في دراسة المركز القومي للبحوث الاجتماعية و الجنائية (١٩٦٥) ، و دراسة شكري عبد العظيم (١٩٨٤)، و دراسة مجدة أحمد محمود (١٩٨٥) .

و دراسة محمد حسن غانم (١٩٩٠) .

**و عن الدراسات التي تناولت أعمال نجيب محفوظ نجد الأتي :**

١- أن الدراسات التي تناولت أعمال نجيب محفوظ – و من منطلقات مـــتعددة – لـــم تـــناول قضـــية علاقـــة الفـــرد بالســـلطة ( و هو ما نحاول تناوله في هذه الدراسة ).

٢- حتى الدراسات القليلة التي تناولت رواية " اللص و الكلاب " لم تتـــناول هذه القضية بصورة تحليلية نفسية ، إذ تناول – مثلاً – أحمد خيري حافظ (١٩٨٥) قضية اضطراب العلاقة بالأخر ، و كـــيف أن اضـــطراب و عـــدم ســـواء المجتمع يقود حتماً إلى اضطراب الأفراد لكن ذلك يثير تساؤلاً: لماذا يضطرب البعض من الأفراد و لا يضطرب البعض الآخرْ ؟! و هنا يتحتم البحث فـــي ســـيكوديناميات هـــذا الشخص المضطرب / المتمرد على السلطة لسبر أغواره وصولاً إلى مصدر هذا الاضطراب.

كمـــا أن دراسة لطيفة الزيات قد تناولت رواية "اللص و الكلاب " من منظور أدبي و ليس نفسي حيث ركزت على الجديد في "تكنيك" كتابة هذه الرواية و اعتمادها على مجرى تيار الوعي (١،٣٣:٥٦)

في حين أن عبد الرحم أبو عوف قد تناول مفهوم الزمن الروائي في بعـض أعمـال نجيـب محفوظ (١٠) ، و أن حنورة قد ركز على مربع العبقرية لدى نجيب محفوظ ( ١٩، ٣٣: ٥٦).

بيـنما تناول يحيي الرخاوي و عبد الله عسكر بعض أعمال نجيـب محفوظ البعيدة تماماً عن هذه الرواية ، أو التي تثير القضية التي نتحن بصدد تناولها.

و رغم ذلك فقد استفاد الباحث من الدراسات السابقة ، و التي أثارت لديه تساؤلاً و اهتماما بضرورة تناول ديناميات صورة السلطة لـدى المسـجون لـيس من خلال دراسة ميدانية على مجموعة من الأفـراد ، بـل من خلال تناول شخصية روائية تنبض بالحياة و لها فلسـفتها الخاصـة في التعامل مع الذات و الأخر، و كيف أن وجود بعض الأفكار و اللامنطقية – تجاه السلطة – قد قادها إلى الانفعالات الحـادة و السـلوك الإجرامي معاً حتم على – الفرد و السلطة – أن يدخـلا فـي مواجهات دامية انتهت بانتصار السلطة في سحق تمرد الفرد المناوئ لها.

**تساؤلات الدراسة : –**

١- مـا هـي ديناميات صـورة السـلطة لـدى المسـجون ( بطـل روايـة اللص والكلاب ). كما تتضح من خلال تحليل مضمون الرواية ؟

٢- مـــا هـــي العوامل التي تشابكت و تفاعلت و قادت إلى الصورة العدائية لكافة أشكال السلطة كما تتضح من خلال تحليل مضمون الرواية ؟.

٣- مـــا هو موقع بطل راية اللص و الكلاب على متصل السواء و عدم السواء النفسي من خلال التحليل النفسي لمضمون الرواية ؟

## المنهج و الإجراءات:

**أولاً** : عيـــنة الدراســـة : رواية اللص و الكلاب لنجيب محفوظ . و يتمثل منطق اختيار هذه الرواية فيما يلي.

١- لأنهـــا الرواية الأولى لإبداعات نجيب محفوظ ، بل و في الأدب العربي عموماً التي تستخدم مجرى تيار الشعور (١٨،١٦) . و لا شك أن هذا الأسلوب هو الأقرب إلى المنولوج الداخلي "و لا شك أن ذلك ييسر للباحث مهمته ، فهو يتناول الرواية على أنها "تـــداع طلـيق" مـــن شـــخص أشبه ما يكون في جلسة التحليل النفســـي ، و مـــن خلال هذا التداعي تتحدد الأفعال النفسية التي تحدد ملامح البطل الأساسية ، و يسهل أيضاً استخدام المعطيات اللاشعورية (١٢٥،٢).

٢- أنهـــا الـــرواية التـــي مـــن عـــنوانها تستطيع أن تحدد طرفي الموضـــوع ، فالأنـــا ، أو أشكال السلطة ، كما يدركها الشخص المجـــرم ، و لا شـــك أن ذلـــك يسهل مهمة الباحث حتى يتحدد الموضوع و منذ البدء.

٣- أن هـــذه الـــرواية بالذات تحدد مدى عبقرية نجيب محفوظ ، إذ اســـتطاع أن يحول قصة المجرم الذي أطلق عليه " السفاح" في ذلك الوقت و تحديداً في أواخر الخمسينات و بداية الستينات إلى رواية توضح معالم الصراع بين الفرد الذي يسعى إلى التغيير و التمرد ، و السلطة التي تقف أمام كل ذلك.

٤- أن دراسة علاقة الفرد بالسلطة من الموضوعات الجديرة بالبحث و الدراسة المستمرة ، لأن هذه العلاقة لا تنفصم ، كما أن الفرد لأب أن يكون له موقف من السلطة بغض النظر عن طبيعته . و لـــذا فـــأن " الفـــرد و السلطة" من الموضوعات الجوهرية لدى الإنسان.

## مفاهيم الدراسة : سوف نستخدم في دراستنا مفهومين هما :

## السلطة : AUTHORITY

تعـــرف السلطة في موسوعة علم النفس و التحليل النفسي بأنها " أحد الأشـــكال الرئيســـية لتنظيم أفعال الناس و تنسيقها لتحقيق هدف عام ، و تكون الممارسة إما بالتبادل ، أو بممارسة القوة ، أو بغرض السيطرة التي تهدد المخالف ، أو المتمرد من المكافأة ، أو سحب الامتيازات (٨٠،٩) . و تعـــرف الســـلطة مـــن وجهة النظر الاجتماعية بأنها : "قوة نظامية و شـــرعية في مجتمع معين " مرتبطة بنسق المكانة الاجتماعية ، و موافق عليها من جميع أعضاء المجتمع ، و ترجع أهمية السلطة على أنها توجيه ســـلوك الأفراد بصورة محددة لإنجاز الأهداف العامة ، و يتحقق ذلك من خـــلال بعض الميكانيزمات مثل: التبادل و المصالح المشتركة و التضامن و القوة (٣٢،٢٠ ) و يعرف محمد غانم (١٩٩٠). السلطة تعريفاً إجرائياً

بأنها : "موقف الفرد من الأوامر و النواهي التي يتلقاها إما خضوعاً لها أو تمـــرداً عليها ، باعتبار أن هذا الضبط لسلوك الفرد هام جداً لصالحه ، و لصالح الآخرين (٢٥،٢٦) .

**المسجون : -**

يعـــرف المســـجون فـــي الدراســـات النفســـية التي أجريت على المســـجونين – و منها هذا التعريف الذي نتبناه – بأنه كل من يحكم عليه بالإبداع في مؤسسة عقابية لمخالفته القانون يسمى مسجوناً . (١٢٧،٨) .

**أداة الدراسة** : تســـتخدم هذه الدراسة تحليل المضمون Content Analysis ، و إن كـــان من المهم أن يذكر أن ثمة خلافاً كبيراً حول التكييف المنهجي لتحليل المضمون في المراجع العربية و الأجنبية ، فهـــناك وجهـــة نظـــر تـــرى أن تحلـــيل المضمون هو أحد المناهج المســـتخدمة فـــي وسائل الاتصال المكتوبة و المسموعة بوضع خطة مـــنظمة تـــبدأ باختيار المادة محل التحليل و تضيفها – وفقاً لأسس معينة – إلى مستويات كمية و كيفية (٥٢:١٧،٢٩) ، في حين ترى وجهه النظر الأخرى أن تحليل المضمون ما هو إلا مجرد أسلوب أو أداة يســـتخدمها الباحث لتحليل معلومات معينة و ذلك في إطار منهج شامل هو منهج الدراسة المسحية (١٠٧،٧)

و علينا أن نحدد موقفنا من هذا الخلاف و، نرى تجزئة العمل الروائـــي إلى وحدات و فئات و بنود قد يحول العمل الأدبي إلى مجموعة من الأرقام التي قد لا تنفذ إلى جوهر ديناميات العمل الروائي ، و إذا كان أســـلوب التجزئة يصلح في وسائل الاتصال و تكميمها فإنه لا يصلح في

فهـم عمـل روائـي يتطلب خبرة و نفاد و مهارة فائقة في الوصول إلى الـدلالات التـي تكمـن خلـف فلسفة العمل الروائي و ليس فقط التنازل السطحي للأحداث . و تشير الدراسات السابقة إلى وجود طريقتين لتناول العمل الأدبي و هما : -

**أولاً : -** التـناول النفسـي للرواية أو العمل الأدبي فصلاً إثر فصل (كمـا فعـل فـرج أحمد في تحليله النفسي لرواية طوبى للخائفين ليائيل ديان ).

**الثانـي** : - تـناول القضية المركزية للعمل الروائي مثل ما فعله عـبد الله عسكر في تحليله لروايتي : قلب الليل و الطريق لنجيب محفوظ حيث تناول في الرواية الأولى قضية تشكيل هويـة الـذات ، و فـي الثانـية تناول قضية غياب الأب الرمزي . و سوف نركز على الفكرة المحورية للرواية ، و كـذا الإحصـاء الكمي لكلمات تدل على اضطراب العلاقة بالآخرين مثل الخونة ، الخيانة ، الغدر ...الخ.

أما ما يدعيه البعض من ضرورة تحديد الثبات و الصدق ضماناً للموضوعية في تناول العمل الأدبي فنرى أن النظر إلى هذه القضية يخـتلف حين يتم تناول عمل إبداعي متشابك و قد يفتح المجال – و هـذا هـو الاتجاه الحديث في تناول الأدب – القراءة المتعددة للنص الواحد .

**و لذا فإن قراءتنا لرواية اللص و الكلاب ستسير في الخطوات الآتية :-**

١- العلاقة بين بطل الرواية و السلطة الوالدية ( الأب - الأم - الأخ الأكبر - بديل الأب - الزوجة - الابنة ) .
٢- العلاقة بالسلطة التعليمية ( المدرس - ناظر المدرسة ).
٣- العلاقة بالسلطة الدينية ( و تحديد الارتكاز على محور لإقامة الشعائر الدينية )
٤- العلاقة بسلطة القانون و القائمين على تطبيقه .
٥- العلاقة بالشرطة ( الضباط - المباحث - كافة رموزهم كالمخبرين).
٦- طبيعة و ديناميات العلاقة بالسلطة بصفة عامة
٧- مدى سواء أو عدم سواء بطل الرواية من خلال الاحتكاك إلى معايير الصحة النفسية.

**ملخص للرواية** : تبدأ رواية اللص و الكلاب بخروج ( سعيد مهران ) من السجن بعد أن قضى أربعة أعوام نتيجة خيانة زوجته (نبوية ) و صديقه (عليش سدره) و يفكر في الانتقام و لكن الرصاصات تكون طائشة و يقتل رجلاً لا يعرفه بدلاً من قتله للخونة (نبوية و عليش) ، كما يقتل خادم رؤف علوان (مثله الأعلى و مرشده ). بدلاً من قتله رؤف،نفسه ، و هنا يصبح حديث الناس ، و مصدر قلق للشرطة ، و ينجح في الاختفاء عند غانية (نور) كانت و مازالت تحبه إلا أنه يصر على الانتقام ، و يع

أخـــيراً في قبضة الشرطة (الأعداء) ، و هو مقتنع بقضيته ، رافضاً الاستسلام للكلاب.

## مناقشة النتائج و تفسيرها :-

**أولاً:** مناقشـــة التســاؤل الخـــاص بديناميـــات صــــور الســـلطة ( بكافة أنواعها ) لدى المسجون سعيد مهران :

### ١- العلاقة بالسلطة الوالدية -الأسرية :-

أ- **العلاقة بالأب** : علاقته بالأب سطحية ، إذ يتحدث عنه قائلاً : "عم مهران ، الكهل الطيب بواب عمارة الطلبة . العمل و القناعة و الأمان . و قد اشتركت معه في الخدمة مـــنذ الطفولة " (ص٨٨) ، بيد أن الأب حاول قدر جهده تعليمه أمرين :-

**الأول** : إلحاقـــه بالمدرسة بناء على تعليمات الطالب – حينذاك – رؤف علوان ، و قد حقق سعيد مهران نجاحه في مراحله الأولـــى ، إلا أن مـــوت الأب المفاجـــئ لم يجعله يكمل تعليمه.

**الثانـي** : اصطحاب الأب أبنه إلى الشيخ "على الجنيدي " لحضور حلقات الذكر (ص٨٩ ) . " طفولة و أحلام و حنان أب و أخـــيلة سماوية : المهتز ون بالأناشيد يملئون الحواس و الله في أعماق الصدور. يتردد صوت : انتظر و أسمع و تعلم . أفتح قلبك. هكذا كان يقول الأب " (ص١٨).

ب - **الأم : علاقته بها سطحية** ، و لم يذكرها في تداعياته إلا حيـن أصابها النزيف بعد موت والده المفاجئ – و ذهب بها إلى مستشفى خاص إلا أنه طرد خارجه و لفظت أنفاسها في مستشفى حكومـي (ص٨٩ : ٩٠)، و كان مرضها هو الدافع الأول لقيامه بالسرقة تحت ضغط العوز و الاحتياج و قسوة الآخرين .

ج - **الأخ الأكبر** : يتضح من خلال تحليل مضمون الرواية أنه كان الابن الوحيد للأسرة "ورغم البساطة و الفقر كانت الأسرة تفوز..... الـرجل و امرأته يتحادثان و الطفل يلعب (ص٨٨). و هذا يطرح ثلاث **ملاحظات** :

١- يبدو أن الوالدين قد اقترنا في سن متأخرة.
٢- أنهمـا كانـا طاعنيـن فـي السن (حيث وصفهما في أكثر من موضوع بالكهولة).
٣- أنـه الابـن الوحيد ، و ذلك قادة إلى تضخم في ذاتيته تلك التي قادتـه إلى التمرد، أخذ على عاتقه محاربة الشر ، و هو يتلمس المعـنى لحياته ، و يتلمس المعنى لموته في تحقيق هذا الهدف ، ألـم يقل " أن من يقتلني إنما يقتل الملايين. أنا الحلم و الأمل و فديـة الجبـناء و أنـا المـثل و العـزاء و الدمع الذي يفضح صـاحبه"(ص١٢٠). و سوف نوضح ذلك فيما بعد حين نتناول التساؤل الثاني:

د - **بديـل الأب أو الأب الثاني إن جاز التعبير** : و هو رؤف علوان : فلقد أثر في سعيد كثيراً و غير العديد من قيمه. فقد نصحه بمواصلة

التعليم ، أو بمعنى أصح "بالمسدس و الكتاب . بالمسدس للتعامل مع الماضي (رموز السلطة المستبدة )، و الكتاب لفتح مغاليق المستقبل (ص٩٨، ٩٩ ) ، و كـذا تدعيمه الفعل السرقة ، بل و اعتبار ذلك عمـلاً مشروعاً (ص٩٠) . و كذا التخطيط مع سعيد مهران لسرقة العديـد مـن القصور (٣٦:٣٥) ، " و إن من يسرقوننا فلابد بنفس الأسـلوب أن نسترد ما سرقوه منا " و لذا فقد تم تدريبه على كيفية اسـتخدام السـلاح لتحقيق ذلك، و شهد تدريباته في الفجر نجاحات منقطعة النظير.

و لذا فحين خرج من السجن ووجدكم التغيرات التي لحقت "بخالقه الـذي ارتده (ص٣٧). زلزل ذلك كيانه. و ما يؤكد استنتاجنا بأن تأثـير رؤف علوان كان أكثر من تأثير والده قول سعيد ساخراً . " أليس عجيباً أن يكون علوان على وزن مهران" (ص٢٩) .

هـ – **نـبوية (الزوجة):** نعـرف مـن خـلال مضمون الرواية إنها كانـت تعمـل خادمة عند امرأة تركية ، و قد حدثها عن حبه ، و أخلـص لهـا ، إلا أنهـا خانته مع صديقه حين أبلغا عنه الشرطة فقبضـت علـيه ، و لولا الخيانة ما كان السجن ، كما نعرف أنها كانـت تسـبقه إلـى أيه شقة أو فيلا ينوي سرقتها تعمل خادمة أو غسـالة لبعض الوقت حتى ترشده عن المخارج و المداخل ، و قد ظلـت ذكرى الخيانة عالقة في ذهنه ، بل بسببها كره كل النساء و دخل في تمرد ضد كافة أشكال السلطة (مواضع متعددة من الرواية خاصة ف ١ ، ف٢٧ ف١٠).

و- **ابنته** (سناء) : مشاعره تجاهها متناقضة فتارة يفصح عن حبه لها " سناء " "إذا خطرت في النفس إنجاب عنها الحر و الغبار و البغضاء و الكدر ، و سطع الحنان فيها كالنقاء تحت المطر (ص٨). و حين قرر أن يقتل نبوية و عليش (الزوجة و صديقه اللذان خاناه) تظهر الثنائية الوجدانية – بشقها الأخر – تجاه سناء ، إنها أبنته و في نفس الوقت رفضه حين خرج من السجن و طلب رؤيته(ص١٤ ، ١٥) ثم هي "الشوكة المنغرزة – في قلبي " (ص٥٩). ثم يتساءل : هل أترك أمك الخائنة إكراما لك؟ أريد جواباً في الحال " (ص٥٩). و رغم ذلك كان دافع الانتقام أكبر من أن يكبح ، كما أننا نرى أنه لم يحب أبنته على الإطلاق لسببين :-

**الأول** : أنه بعد أن خرج مكن السجن و ذهب إلى منزل زوجته السابقة و صديقه الخائن مدعياً– رؤيته أبنته ، إنما كان ذلك رغبة على السطح الهدف منها التمويه لاختبار الحصون لكي ينتقم في الوقت المناسب(ف١ ،ص١١ ) إنما جئت أجس حصونك و عند الأجل لا ينفع فجر و لا جدار"( ص١١ ).

**الثاني** : أن الشيخ على الجنيدي استطاع أن ينفذ ببصيرته إلى أن فهم رفض الطفلة لوالدها ليس مستنداً إلى أسباب سطحية منطقية و هو حرمانها منه و عدم رؤيته له بل قال له "و ما أشبهها بك" (٢٢) "أي أن البنت الصغيرة مثلك ، و قد تحجر قلبها مثلك .

**ثانياً: العلاقة بالسلطة التعليمية** : يتضح من التحليل النفسي للرواية أن سعيد مهران لم يواصل دراسته ، فقدا انتظم في

السنوات الأول فقط و قد حقق نجاحاً ، و لم يكمل له الدراسة النظامية بسبب ضيق ذات اليد ، ووفاة والده ثم والدته ، و تحمله المسئولية ، ثم اعتمد على القراءة غير الرسمية للعديد من الكتب التي كان يمده بها رؤف علوان ، و هي كتب ثورية تمض على مقاومة الفساد . و ملأ أفكاره باتجاهات معينة تجاه الأثرياء ، بل إن رؤف أمده بالعديد من الأفكار التي تحرضه على السرقة قائلاً له : أليس عدلاً أن ما يؤخذ بالسرقة يجب أن يسترد بالسرقة (ص٦٠) ، لذا كان سعيد مهران حريصاً جداً على استرداد كتبه من زوجة السابقة عقب خروجه من السجن ، و حزنه على ضياع أكثرها ، و تجاهله لسخرية المخبر " من أين لك هذا العلم ؟ ثم " أ كنت تسرق فيما تسرق الكتب ؟ (ص١٧) ، ثم وضع الكتب عند الشيخ على الجنيدي (الفصل الثاني) و في المرات القليلة التي كان يذهب فيها إلى الشيخ كان يجلس دوماً بجوار الكتب (ص١٣١).

و لذا فإن العلاقة بهذه السلطة قد تبلورت في اتجاه كراية هذه السلطة بل و محاربتها بأفكار معينة .

**ثالثاً: العلاقة بالسلطة الدينية** : يتضح من خلال الرواية " فقر " الاتجاه الديني عند سعيد مهران . فرغم أن والده كان "يحج" إلى هذا المكان ، و يتبرك بالشيخ على الجنيدي إلا أن سعيداً كان تأثره بأفكار "رؤف علوان" التقدمية الثورية أكبر من الإيمان بالدين (حيث الرضى و القناعة و الرضى بالقليل ). و اتضح ذلك في العديد من المحاور :-

**الأول**: أن سعيد مهران أعلن للشيخ أكثر من مرة "ابى كان يفهمك أكثر مني " (ص٢١) " و يشير ذلك إلى فقدان لغة التواصل و التفاعل بـل و الحـوار مع الآخر ، ذلك الأخر الذي يشير إلى الذات و يشكلها.

**الثانـي**: أنه لم يذهب إلى الشيخ عقب خروجه من السجن بسبب حاجته إلـى الديـن أو جـريمة إيمانية و إنما فقط كان يريد المأوى " كان أبي يقصـدك عـند الكرب ، و جدت نفسي .... فقاطعه (الشيخ) بهدوء لا يخرج عنه : أنت تريد بيتاً ليس إلا "(ص٢١) . و يشير ذلك إلى سطحية العلاقة بالدين.

**الثالث**: أن الشيخ طلب من سعيد مهران يتوضأ و يصلي ، أو حتى يأخذ مصـحفاً ليقرأ لكن سعيد تجاهل هذا العلاج الروحي لأزمته ، و ظـل يجـادل الشيخ بالخونة و الخيانة و الأوغاد ، و الغدر ، و نكران أبنته له (ص٢٥،٢٦).

**الرابع**: استحالة التفاهم ، أو حتى اللقاء الفكري و الأيديولوجي – بين سعيد مهران و الشيخ ، لأن كل منهما يسير في طريق مختلف ، فسعيد يرى أن " الأوغاد ثلاثة ، و الشيخ الجنيدي سعيد بهذا العدد قـائلاً له : "طوبـى للدنـيا إذا اقتصـر أو غادهـا على ثلاثة) (ص١٣٢) ، و ظـل الجدل و الخلاف قائماً و في أكثر من لقاء (ص١٣١ – ١٣٤). و ترى أن الموقف من الدين – كما سبق و أشـرنا سـلبي فسـعيد مؤمن بالله – بلا شك – إلا أنه لا يؤدي الفرائض ، كما أنه فيما يبدو غير مقتنع بحكم الله في ثراء البعض

و فقر البعض الأخر، و يبحث عن عدالة مثالية لا وجود لها على أرض الواقع . و ربما كانت الأفكار التقدمية التي يزرعها رؤف فـــي رأســـه قـــد جعلته يوقن أن الفقر ما هو إلا نتيجة استغلال الأغنياء لهم ، فالأب قانع و سعيد رافض . و هذا أحد أهم محاور تمرده.

**رابعاً: العلاقة بسلطة القانون** : لعل مأساة سعيد – أيضاً – أن موقفه عدائي تجاه القانون ، فهو يرى أن القانون ظالم ، و أن من يقومون بتطبيقه ظالمون و أنهم ينحازون في أحكامهم تبعاً لمكانة الشـــخص ، و أنهـــم يـــتركون اللصوص الحقيقيين ، و يطبقون القـــانون علـــى "الفقـــراء و المهمشـــين " ، علمـــاً بأن مثل هذه الاتجاهـــات قـــد توصـــل إلـــيها الباحث الحالي في دراسته عن ديناميات صورة السلطة لدى المسجونين ، بل ذهبوا إلى أن مسالة القبض عليهم هو من رجال الشرطة ثم تطبيق القانون عليهم هو مـــن قبـــيل سوء الحظ ، بدليل أن هناك العديد من اللصوص من الذين يسرقون أكثر منهم و رغم ذلك.لم يتم القبض عليهم ، و هذا مـــا جعـــل سعيد مهران يردده لنفسه أكثر من مرة . فلولا خيانة زوجته و صديقه ما استطاع الجن نفسه أن يلقي القبض عليه.

و قـــد استطاع نجيب محفوظ بحدسه الواعي أن يعبر عن ذلك فـــي الفصل (١٥) حين جعل سعيد مهران يهلوس لنفسه بأن يدافع عن نفسه أمام المستشارين ،إلا أنه و قبل أن يمضى فى دفاعه أكد لنفســـه ( ‥ ولكـــن كـــيف تطمئـــن على قضائك و بينك و بينهم خصـــومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام ؟ إنهم أقرباء للوغد

( يقصــــد رءوف علـــوان ) و يفصل بينك و بينهم قرن من الزمان (ص ١٢٠)

**خامساً : العلاقـة بسلطة الشرطة** : علاقة عدائية .وقد برزت بجلاء فـــي الفصـــل الأخير ( ف ١٨ ) حين رفض الاستسلام لهم و فضــــل أن يستمر في إطلاق الرصاص باتجاههم أو حين هتف صـــوتن الشـــرطي في ظفر : سلم لا فائدة من المقاومة سلم و أعـــدك بـــأمك ستعامل بإنسانية " إلا أنه سخر من ذلك قائلا : كإنسانية رءوف و نبوية وعليش و الكلاب (ص ١٣٩ ) و ظل يقـــاوم حتى نفذت ذخيرته و لقي حتفه . كما استخدم ميكانيزم التوحد بالمعتدى " حين طلب من نور أن تحضر له قماش بدله ضابط و قام هو " بالحياكة " و ارتداها رغم الحصار ، و ذهب لكـــى يقـــتل رءوف علـــوان ، كما أنه حين فاجأه مخبران فى الصحراء وكان يرتدى نفس البذلة " وخشى أن يفلت الزمام منه بقـــوة (أى أن يشـــكا فيه ) فبقوة لا تعرف التردد وجه قبضتيه معاًالى يطنى الجلين مترنحا وقبل يتمالكا نفسيهما أنهال عليهما لكمـــاً فـــى مواطـــن الضـــعف .. حـــتى سقطا مغشياً عليهما (ص ١٢٦ ) .

أما موقفه من المخبر حسب الله فقد حاول "مداهنته فى أكثر مـــن واقعة خاصة الفصل الأول من ص ١٠ :١٧ ) كما أطلق على الشرطة فى أكثر من مناسبة كلمات مثل : الأوغاد الكلاب

**سادسا : العلاقـة بالسلطة بشكل عام** : موقف سعيد مهران هو موقف عدائي حيث نصب نفسه حاكما وقاضيا وجلادا لأقامة

العـــدل والقـــانون فـــي الأرض ، وهذه مأساة سعيد مهران
،والـــذي ظل منذ المنظر الول في الرواية حتى أخرها وهو
يـــركض تجـــاه نهايته المحتومة مؤكدا قول هيجل الشهير :
( أنك بقتلك الخر أنما نفسك تقتل)

**التساؤل الثاني** : مـــا هى العوامل التى تفاعلت و تشابكت وقادت إلـــى هـــذه الصـــورة العدائية للسلطة ؟ تشابكت مجموعة من الأحداث و المواقـــف وقـــادت إلـــى الصورة العدائية للسلطة . فقد كان الابن الوحيد لولدين كهلين انشغلا بالبحث عن لقمة الخبز . و الأب راض و قانع وكذا الام ، وحرص الأب على أن يلقنه درس الدين ، ولكن الواقع كان أقسى و أمـــر حيـــن مات والده و مرضت الام و تم طردها من مستشفى خاص فاضـــطر أن يســـرق ، و لـــذا فقـــد قام والده الفكرى – فى مقابل الوالد البيولوجى ، رءوف علوان بتحريض على السرقة ، وأن الفقر الذى نعنى منه ما هو إلا رد فعل لسرقة الأغنياء لنا ، و لذلك عاش فى صراع تمثل فى مستويين : –

**الأول :** القـــــناعة كمـــــا يمـــــثلها الأب البـــــيولوجى
( عـــم مهـــران الكهل الطيب بواب العمارة ) ، و يثبتها الشيخ
على الجنيدى خلاصاً فى الدين

**الثاني :** قسوة الواقع و ثراء البعض و فقر الأغلبية مع دعوة للتحريض
و السرقة كما يمثلها رمزه الأعلى ( رءوف علوان ) .

ولذا فإن سعيد مهران احترف اللصوصية ( حيث تتفق مع أفكاره أو تـــتعارض مع الرضى بالقليل ، و مثل له رءوف علوان الجانب الفكرى

هـــى حيـــن مثلت له نبوية زوجه وصديقه و لأدواته التى كان يستخدمها لتقـــيق السرقات . وإذا كان جانبه العقلى – أو أن شئت الدقة قل اتباعه و مريدوه قد خانوه ووشوا به الى السلطة فانه ظل يبحث من جانبه الفكرى المتمـــثل فى رعووف علوان ولذا فقد اش سعيد مهران انفصالاً بين الفكر فكر الأخر ، و الفعل ( حيث يقوم هو بالفعل ) مما جعله – بعد الخيانة – يضـــع رعووف علوان فى جانب ضحايا السلطة و الكلاب و الممثل لهم وســـعيد فى جانب السلة و الاستغلال ، ولذا فقد أخذ على عاتقه المحدود الإمكانـــيات مواجهة الظلمة و قوة بطش السلطة الغاشمة . وقد قاده ذلك إلـــى مجموعة من التخبطات غير المحسوبة التى قادته فى النهاية إلى أن يلاقـــى حتفه رافضه كافة المحاولات التى من خلالها يستطيع أن يتصالح مع نفسه ثم مع السلطة التى يخضع لأوامرها حتى ولن رفض ذلك على المستوى الشعورى و الشخصى

## ثالثاً : شخصية سعيد مهران بين السواء و عدم السواء.

يذهب أحمد خيرى حافظ إلى أن سعيد مهران سيكوباتياً ، بل مأساته أنـــه كان يحيا فى مجتمع مضطرب ، وقد حاول إصلاح هذا الاضطراب فعجز ، أو بمعنى آخر – كما يقول خيرى حافظ "سعيد صرخة الاحتجاج المدوية فى عالم الظلام و الفساد و الخيانة ( ص ١٥٦ ) .

و لكنـــنا نخـــتلف حول الرأي السابق فبغض النظر عن "تصنيف " ســـعيد مهـــران فى فئة إكلينيكية ما ، إلا أن معيار الشواء وعدم السواء تحتم علينا إقرار حقيقة أن سعيد مهران كان مضطراً و غير سوى لعدة أسباب :-

١- مــن محكـــات السواءان يكون الإنسان مرناً و من الواضح أن سعيد مهــران قــد اعتــنق أفكاراً و اتجاهات معينة و رفض التخلى عنها ( رغــم تغــير الظروف ) ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك و اعتبر من يخالفــه ، أو يخالفــه فــى الرأي خائناً لدرجة أنه وصف " رءووف علوان " بخالقه الذى ارتد ( ص٣٧ ) .و لذا فان تكرار كلمة "خيانة و مشــتقاتها "قد تكررت كثيراً فى الفصل الأول مثلا ( ٧) مرات و فى الفصــل الثانى ( ٥) مرات ، و الفصل الثالث ( ٤) مرات و الفصل الــرابع ( ٥ ) مرات و هكذا فى باقى الفصول ، ولذا فان الشخصيى السوية تستطيع أن تتجاوز خيانة مثل خيانة رءووف علوان لانه من المفروض اذا كان الشخص يؤمن بمبادئ قد اعتنقها لاكفرد هو رمز و تجسيد لهذه المبادئ بحيث إذا ارتد الفرد كفر التابع بالمبادئ (١)

٢- مــن محكات السواء أن يكون الإنسان واقعياً ، أي يتعامل مع الواقع كــيفما تقتضــى الضرورة بيد أن سعيد مهران يلوى عنق الأشياء و يرفض ،و يرفض التعامل مع الحاضر و يقحم الماضى عليه . وهذه مأســاته فلم يعد يرى عليش سدرة ( صديقه و تابعه القديم ) إلا ذلك الخــادم الــذى يتمسح به و لم يعد يرى زوجه إلا خلئنة قد نبتت فى ارض الوحل و الخيانة ولم يعد يرى رءووف علوان ذلك الطالب ذو الملابس الرثة و الافكار التى تحرض على السرقة

٣- مكــي محكات السواء النفسى ان يطور الإنسان نفسه . وهذا ما يفتقد إلــيه ســعيد مهــران ،و قــد اتضح ذلك حين ذهب لزيارة رءووف علولــن ،وذكر له صراحة أنه قد تعلم مهنة الخياطة فى السجن ص (٣٤ :٣٩ ) ،و رغــم محــاولات رءووف الصــادقة أن يساعده فى

الحاقـــه بأي عمل آلا انه سخر قائلاً : لماذا لا اعمل محرراً معك فى الصـــحافة ؟ و أصـــر على احتراف مهنة واحدة لا يجيد غيرها ألا و هـــى :/ اللصوصـــية (ص ٣٥ ) ، ولذا فقد صدم فى رءووف علوان حيـــن وجـــده يتـــبرأ مـــن الماضـــى ص(٣٥) بـــل حيـــن نصـــحه رءووف علـــوان بضـــرورة نســـيان الماضـــي و البحـــث عـــن عمـــل شـــريف إلا أن ســـعيد مهـــران ســـخر مـــنه قائلا : " ما أجمل أن ينصحنا الأغنياء بالفقر.

٤- مـــن محكـــات الســـواء النفسي أن يكون للإنسان هدف نبيل يسعى إليه . وســـعيد مهران لم يكن لديه هدف سوى الانتقام من الأوغاد والكلاب، وقد عبر عن هدفه قائلا : قمة النجاح أن يقتلا معا ، نبوية وعليش ، وما فوق ذلـــك يصفى الحساب مع رؤف علوان ثم الهرب ، الهرب إلى الخارج إن أمكـــن " (ص٥٩) ونحـــن بدورنا نتساءل : هل قتل نبوية وعليش ورؤف وحـــتى مئات غيرهم هل ذلك القتل سبل العدالة في الأرض ؟ وما الهدف مـــن الانـــتقام ، إن ســـعيد مهران ليس كما يصفه أحمد خيري حافظ بأنه مـــتمرد (ص١٥٥) ، وإنمـــا هـــو إنسان يتخبط في جنبات الاضطراب ، ويـــتحرك بـــلا هدف، ولذا فإن نجيب محفوظ بحدسه الباهر قد جعله في غمرة انتقامه ينتقم من آخرين لا علاقة لهم بالذين خانوه .

٥- مـــن محكـــات السواء النفسي أن تكون الأهداف التي يحددها الشخص له علـــى قدر إمكانياته ، لكن سعيد مهران يريد أن " يرسي دعائم العدل في الأرض " ويظـــن – إلي درجة الاعتقاد واليقين – أنه نصير الملايين من ضـــحايا الكـــلاب والمســـتغلين ولذا فإنه يشكك في نزاهة القانون ، ومن يطـــبقون القـــانون لأنهـــم مـــن وجهة نظره " منحازون " إلي اللصوص

الحقيقيين ، ويرى أن كل ثري يسكن قصرا ما هو إلا لص يجب الانتقام منه ، كما أن الحوارات الفلسفية التي دارت بينه وبين الشيخ علي الجنيدي ( رمزالجانب الديني والقناعة والرضي بالقليل والتعلق بالمثل العليا ) ؟. قد أفصحت عن مأساة سعيد مهران وأنه يركض وراء سراب ، وقد أفصح عن ذلك للشيخ قائلا : "هل تستطيع أن تقيم ظل شيء معوج ؟ فقال الشيخ برقة :- أنا لا أهتم بالظلال " (ص١٣٣) إشارة إلي أن مهمة سعيد هي إقامة العدل في الأرض وهو لا شك فوق إمكانياته كشخص .

٦- من محكات السواء النفسي أن يقيم الإنسان توازنا بين الماضي والحاضر والمستقبل لكن يتضح أن سعيد مهران " يطفي لديه جانب الماضي ، ويفتقد كذلك إلي التعايش مع الحاضر وكذا المستقبل ، ورغم أن ابنته " سناء " وكذا المرأة لتي أحبته بإخلاص من قبل ( نور ) يمكن أن يكونا من دعائم ربطة بالحاضر والمستقبل إلا أنه ضيع كل هذا ، ولم تشغله غير فكرة واحدة وهي : الانتقام من الخونة والكلاب والأوغاد من وجهة نظره وإقامة العدل المفتقد علي الأرض ، وقد استغل ( نور ) في إحضار السيارة وبدلة الضابط وكان بين كل جريمة وأخرى يخطط لجريمة ثانية حتى يئست منه واختفت إلى الأبد من حياته لأنها أمنت أن الماضي هو قيد سعيد ومأساته أنه لا يتعامل أبدا مع الوقع ولا مع آي بصيص من الأمل مع المستقبل .

وهذه حقا مأساة سعيد مهران وعبقرية يبر أغوار النفي الإنسانية . وهذا ما جعلنا – رغم كل ما سبق – متلقين ومشفقين بل ومنحازين إلي شخص سعيد مهران .

## المراجع العربية

٢- **أحمد خيري حافظ (١٩٨٥ ) :**
سيكولوجية الآخر عند نجيب محفوظ - دراسة تحليلية لرواية : اللص والكلاب .في كتاب دراسات نفسية عربية، القاهرة : غير مبين الناشر، ص ص ١٩٢ - ٢٠٥ .

٢- **أحمد عزت راجح (١٩٨٢ ) :**
سيكولوجية المجرم العائد . المجلة الجنائية القومية ، المجلد الأول ، العدد الثاني ، ص ص ٧٣-٨٧ .

٣- **أحمد فائق ( ١٩٨٢ ):** الأمراض النفسية - دراسة في اضطراب علاقة الفرد بالمجتمع . القاهرة : دار آتون للطباعة والنشر.

٤- **المركز القومي للبحوث الإجماعية** والجنائية (١٩٦٥ ) : الاستجابات الإدراكية للأحداث المنحرفين - بحث تجريبي . القاهرة .

٥- **سعد محمد شاهين (١٩٨٥ )** . مدخل في علم الاجتماع والقانون . القاهرة : الناشر غير مبين .

٦- **سميرة محمد محسن (١٩٨٣ )** تحليل المضمون . القاهرة : عالم الكتب.

٧- **سميرة شحاتة** (١٩٨٠ ) العلاقة بين تصور الذات وتصور البيئة لدي الجانحات . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات - جامعة عين شمس .

٨- شــكري عــبد العظيم (١٩٨٤) السجن – دراسة في دينامية الجماعة . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة عين شمس .

٩- عــادل صادق (١٩٧١) دراسة نفسية وعصبية للقتلة المصرين . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الطب – جامعة عين شمس.

١٠- عــبد الرحمن أبو عوف (١٩٩١) . الرؤية المتغيرة في روايات نجيب محفوظ . سلسلة دراسات أدبية ، القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب .

١٢- عــبد الله عســكر (١٩٩٧). غياب الأب الرمزي – دراسة في التحليل النفســي لــرواية " الطــريق " لنجيب محفوظ . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية .

١٢-عبد الله عسكر (١٩٩٧).الصدام الأيدولوجي وهوية الذات – دراسة في التحلــيل النفســي لمضمون رواية " قلب الليل " لنجيب محفوظ . القاهرة : : مكتبة الأنجلو المصرية .

١٤- عــبد المــنعم الحفني (١٩٧٥) موسوعة علم النفس والتحليل النفسي . القاهرة : مكتبة مدبولي .

١٤- فرج أحمد فرج ( ب ت ) : التحليل النفسي والأدب – دراسة في تحليل المحــتوي لقصة ليائيل ديان " طوبى للخائفين " . القاهرة : الناشر غير مبين .

١٥- قــدري حفنــي ( ١٩٨٨ ) الإســرائيليون مــن هــم ؟ دراسة نفسية . القاهرة : مكتبة مدبولى .

١٦- كابتاس لوي (١٩٨٢ ) : النقد الأدبي والعلوم الإنسانية . سوريا : دار الفكر .

١٧- كمـال جـندي أبو السعد (١٩٧١ ) : بحث في ضوء التحليل النفسي وعلم النفس الإكلينيكي . القاهرة : دار المعارف .

١٨- لطـيفة الـزيات (١٩٨٩ ) : نجيـب محفـوظ – الصـورة والمثال . مقالات نقدية ، القاهرة : كتاب الأهالي ، عدد ٢٢ .

١٩- حمـد حسـن غـانم ( ١٩٩٠ ) : ديناميـات صـورة السـلطة لدى المسـجونين – دراسة نفسية مقارنة .رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية الآداب – جامعة عين شمس .

٢٠- محمـد عـاطف غيث ( ١٩٧٧ ) : قاموس علم الاجتماع . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢١- محمد مندور ( ب ت ):الأدب ومذاهبه . القاهرة الناشر غير مبين .

٢٢- محمـود فـوزي ( ب ت ) اعترافات نجيب محفوظ . . القاهرة : دار الشعب العربي .

٢٣- مجـدة أحمد محمود (١٩٨٥ ) الشخصية بين الفردية والانتماء –دراسة فـي سـيكولوجية العلاقـة بيـن الفرد والمجتمع . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة عين شمس .

٢٥- مجدي حسن محمود ، حمدي أحمد المكاوي (١٩٨٩) : خصائص مرت. مجلة علم النفس عدد ٩ ، ص ص ١٩ – ٢٨ .

٢٥- مصـــري حـــنورة (١٩٩٠ ): مربع العبقرية في مسيرة نجيب محفوظ الإبداعـــية . القاهـــرة : محاضــــرات الموســـم الثقافي الأول لرابطة الأخصائيين النفسيين ، ص ص ٣٣- ٥٦ .

٢٦ - مكـــرم شاكر إسكندر (١٩٩٢ ) : أدباء منتحرون – دراسات نفسية . بيروت – لبنان : دار الراتب الجامعية .

٢٧- ناديـــة سالم (١٩٨٣) : إشكاليات استخدام تحليل المضمون في العلوم الاجتماعية . مجلة العلوم الاجتماعية عدد ٣ ( سبتمبر ) ، ص ص ٣٦-٥٣ .

٢٨- نجيـــب بكـــير ( ب ت ) : آدم وحواء والقانون والإنسانية . القاهرة : مكتبة عين شمس .

٢٩- نجيب محفوظ ( ب ت ) : رواية اللص والكلاب . القاهرة : دار مصر للطباعة .

٣٠- هو ارس . ب . إنجلش ( ١٩٧٥ ):علم نفس الطفل . ( ترجمة ) السيد محمـــد خـــيري ، فـــي كتاب : ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية . القاهرة : دار المعارف ، ط ٤ .

٣١- يحي الرخاوي (١٩٩٢ ) : قراءات في نجيب محفوظ . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

32- barclay , KL Gallemer . J (1972): The Family of the prostitute, Psychological Abstracts, VoL.50, N.2 , pp.316- 325 .

33- Freud,s (1974) The Future of an illusion standard edition: of. S. Freud, The Hogrth pressl the intitute of Psychoanalysis, London.

34- Jan- Mar ( 1983 ): Deviant Behavior, Ponderings Ponderings, VoL. 2, U.N.A.

35- Herbert, A. Blochand Givert ( 1962 ): Man crime and Society the farma of criminal behavior gandon. Hanrepublishing, NeW YorK, U.S.A.

36- Robert Marton ( 1957 ): Social theory and social Structure, NeW YorK, U.S.A.

# -٢-

# مصائر الشخصيات

# فى

# ملحمة الحرافيش

## ثانياً مصائر

# الشخصيات في ملحمة الحرافيش

## المعنى والدلالة

### محمد حسن غانم

أتم نجيب محفوظ - أمد الله لنا في عمره - عامة التاسع والثمانين في العاشرة من ديسمبر الجاري ، و بهذه المناسبة نقدم لقرائه في مصر و العالم العربي هذه الرؤية الجديدة حول "الحرافيش ".

لعل من بين المبادئ الأساسية للتحليل النفسي مبدأ الحتمية ، و الذي يعنى أن كل شئ محتوم الدلالة ، و هو بذلك لا يشذ عما يلتزم به العلم ، و إن عدم الفهم لهذا الحتم إنما يعود إلى أسباب داخلية لاشعورية ناتجة عن المقاومة (١)

والكائن الإنساني يخضع منذ لحظة الإخصاب و حتى الموت إلى العديد من التغيرات المستمرة ، فهو ليس أبداً في حالة ساكنة استاتيكية ، بل ينمو من خلال مراحل متعاقبة ، هذا النمو يشمل كيانه ككل مركب من النواحي الجسمية - التشريحية و العقلية و المعرفية ، و الانفعالية والاجتماعية ، بما يحدد الخصائص التي تميزه كشخصية متفردة ، ولا تقف التغيرات عند حد معين ، ولكنها تستمر ، وإن كان بمعدل أقل سرعة

حـــتى التدهور الذي يخبر الكيان الإنساني في حالات الشيخوخة ، وهكذا يكون النمو عملية مستمرة ، تبدأ حتى قبل الميلاد ( ٢ ).

ولو تأملنا أين يبدأ عمر الإنسان ، أي ما هي نقطة الصفر في حـــياته لوجدنـــا صعوبة في تحديدها ، حيث أن لحظة التحام خليتي الذكر والأنـــثى فـــي رحم الأم تعتبر تحديد ميلاد كيان جديد إلا أنها مع ذلك لا تعتـــبر نقطـــة بدايـــة مطلقة من لا شئ ولكن سبقتها حصيلة خبرة آلاف القـــرون من تطور الحياة تلخصت في أجنة الخليتين اللتين التحمتا لتكونا بداية الجنين ( ٣ ) .

وتوجـــد العديد من النظريات التي قدمت على النمو ومراحله إلا أن الباحـــث يرى أن نظرية أريكسون Erikson في هذا الصدد أفضل النظريات ، إذ قسم مراحل عمر الإنسان إلى ثمان مراحل تبدأ من مرحلة الثقة والأمان في مقابل الشك وتنتهي بالمرحلة الثامنة والتي تعني التكامل حيـــث تعد هذه المرحلة الأخيرة في حياة الإنسان ، وقد عاش حياته كاملة وواجـــه جميع التحديات ، وأتم كل الإنجازات بأفضل ما يستطيع ، ولأنه عـــبر عـــن كل ماضي نفسه مْن رغبات وأشبع كل ما لديه من احتياجات ومـــارس الشـــيء ونقيضه فأطاع وعصى وطمع في الجزاء وخاف من العقـــاب لـــم يعد لديه من بقايا الصراع إلا القليل ولم يعد عنده من الرغبة المضـــادة مـــا يحتاج إلى إشباع أو تحكم و حرمان ، فقد اقترب من حالة الســـكون التام أو النيرفانا أو السكينة التي تصل إلى ذروتها في الموت ، ولا عجـــب أن نجد تشابها بين نهاية الحياة وبدايتها ، حيث خلق الإنسان ضـــعيفاً ، ثـــم يـــتحول إلى القوة ، ثم تتحول القوة إلى ضعف في جدلية ديالتكتيكية ( ٤ ) .

كمـــا أن لكـــل شــئ نهايته في الحياة فالحياة تبدأ بخلية واحدة وتنتهــي بموت الشخص ، كما أن مواجهة الموت – خاصة في المراحل الأخـــيرة مـــن العمر – يعد شيئاً أساسياً ، حيث يقضي كبار السن فترات طويلـــة يفكـــرون في الموت بالمقارنة بصغار السن ، بل ويتقبلون حتمية الموت بدون غضب ، علماً بأن الخوف من الموت يتعلق بشيء آخر غير العمـــر وهـــو المعتقدات الدينية ، كما أن تقبل الموت والاستسلام له يمر بـــالعديد مـــن مـــراحل الإنكـــار – الغضـــب – الصـــفقة – الاكتئاب – الاستســـلام ، علمـــاً بأنـــه ليس من الضروري أن يمر الشخص بكل هذه المراحل ( ٥ ).

وإذا كـــان نهايـــة كل شخص – أو أي كائن حي – الموت ، فقد احـــتل مفهـــوم اهتمام العديد من علماء النفس إذ يرى – مثلاً – فرويد أن الحـــياة كفـــاح بيـــن غريزة الحياة Eros الليبيدو Libido ودافعها الحب والجـــنس والتـــي تعمل من أجل الحفاظ على الفرد و بين غريزة الموت thanatos و دافعهـــا العـــدوان و التدمير ة الانتحار و هي غريرة تحارب دائمـــا مـــن أجل تدمير الذات ، و تقوم بتوجيه العدوان المباشر خارجاً نحو تدمير الآخرين ، و إذا لم ينفذ العدوان نحو موضوع خارجي فسوف يرتد إلى الكائن الإنساني نفسه بتدمير حياته (٦) .

أي أن غريزة العدوان وجدت في الأساس لتدمير الذات ، وقد اتجهت إلـــى الخارج نحو موضوعات بديله فالشخص يقاتل الآخرين و ينتزع إلى التدمير لأن رغبته في الموت قد عاقتها قوى غرائز الحياة بالإضافة إلى عقـــاب أخـــرى فـــي شخصيته تتصدى لغرائز الموت و لكن ليموت في النهاية يحسم الموقف لصالحه (٧).

علماً بأن فرويد يعتبر الموت غريزة أساسية و له فى ذلك نظرية (٨) .

و إذا كان الموت أو النهاية – يعد حقيقة لا جدال فيها لذا فقد حفلت الحياة الثقافية و الاجتماعية بالعديد من الأمثال عن الموت ( أخر الحياة الموت ) .و أن الآجال محدودة (ابن يومين ما يعيش لثلاثة ) و الموت قدر ( اللي ما يموت اليوم يموت بكرة ) كما أن القوة و الحياة والسلطة لا يجب أن تغر الإنسان ببقائه في الحياة ( عاشر مسيرك مفارق ) كما أن الموت حقيقة يجب ألا تغيب أبداً عن بالنا ( من عرف مبتداه هان عليه منتهاه ) و إذا كان الموت كذلك – أي نهاية كل كائن حي –فإن حياة الإنسان – أو الكائن الحي – قد تنتهي بطرق أخرى غير الموت ، و بما أن الأدب هو انعكاس لثقافة الأديب و مدى وعيه بما يدور داخل المجتمع ، و أيضا مدى وعى الأديب بالقضايا الإنسانية ، إضافة إلى انعكاس بناءه النفسي على عمله .. كل ما سبق يجعلنا ندرس حقيقة و دلالة نهاية الأشخاص في ملحمة الحرافيش" ( ١٠ ) .

**تحديد المفاهيم** : سوف نستخدم في دراستنا المفاهيم الآتية :

**الاختفاء :**

هو انقطاع الشخص عن المكان و الأشخاص الذين كان يتفاعل معهما .. انقطاعاً قد يكون مستمراً أو ( منقطعاً ) و قد يكون لأسباب متعددة ، و قد يترك فراغاً في نفوس الأشخاص الذين كان يتعامل معهم ، و قد يكون هذا الاختفاء ذو تأثير ضعيف أو غير محسوس .

## القتـــل

القـــتل فـــى القـــانون هـــو القصاص باليد أي تطبيق قانون العين بالعيـــن ، و الســـن بالســـن ، فـــلا يترك للسلطة العامة أن تمارسه أو لا تمارســـه ، و إنمـــا يتمســـك المجـــنى علـــيه او أقاربـــه أو قومه بإنقاذه بأيديهم (١١) .

و القتل فى علم النفس هو عدوان على الآخر عدواناً على كينونة الآخـــر دون أن يكون بالضرورة عدواناً على اليم الإنسانية المشتركة مم يتضح فى جرائم الثأر و الشرف (١٢) .

و الـــتعريف الإجرامـــي للقـــتل هـــو شخص أزهق روح الآخر أو الآخريـــن بهـــدف تحقيق مصلحة جماعية ( الثأر و الشرف ) أو لتحقيق رغـــبة فـــردية و بصورة عمدية ، و قد يقبض عليه و يودع السجن و قد لايتم ذلك لاسباب متعددة .

### ١- الموت

لـــيس من السهولة بمكان تقديم تعريف محدد لمفهوم الموت أنه مرتـــبط بمفهـــوم الحياة كما أن النظرة للموت المتدين تختلف عن غيره ، كما تتعدد الأسباب و تختلف من ديانة إلى أخرى (١٤).

و الباحـــث يتبـــنى الـــتعريف الذي قدمه "شروط" للموت حيث حدده بالأساليب الآتية :

١- المـوت بوصـفه وسـيلة يحاول الفرد بها اشتقاق أهداف معينة ، و جوانب إشباع من البيئة كما فى حالة التهديد بالانتحار .

٢- المـوت بوصفه انتقالاً إلي حياة أخرى و التي قد ينظر إليها على أنها حياه رهيبة شنيعة أو مجيدة رائعة .

٣- الموت بوصفه نهاية نتوقعها (١٥) .

و لعل هذا التعريف قد جمع بين التهديد و بين الموت فعلاً على أساس انه نهاية طبيعية يتوقعها الإنسان و إن اختلفت النظرة إلي النهاية .

## ٣- الانتحار:

فى القانون : كان الجاري عليه فى دوائر النيابة العامة اعتبار واقعة الانـتحار جـناية قتل عمد مع سبق الإصرار ، المعاقب عليه بالمادتين ٢٠ ،٢٣١ مـن قانون العقوبات ، و لكن فى النهاية تقرر حفظ الدعوى العمومية لامتناع العقاب أي أن الشخص إذا قتل نفسه فانه لا يعاقب على فعله (١٦) .

### ب- في عـلـ

م الـنفس : الانتحار هو سلوك تدميري من الفرد لنفسه ،حيث يقوم طائعاً أو مخـتارا لاسباب و دوافع متعددة – إلى تدمير ذاته بيديه و الذي فرق بيـن نوعيـن من الموت ، موت طبيعي ، وهى ظاهرة لاحيلة للمرء فى دفعها ثم الموت الإرادي و هو الانتحار وقد حبذ نتشه للموت الإرادي لان فيه تحدى للاستسلام للموت الطبيعي (١٧).

## ٢- الشخصية : personality

تــتعدد الــتعريفات التـــي قدمـــت لمفهـــوم الشخصية ، يبدو أن اكثر الــتعريفات شـــمولاً لمفهـــوم الشخصية هو ذلك التعريف الذي جوردون الـــبورت gordonallport الـــذي يرى أن الشخصية هى التنظيم الدنيامى لأجهـــزة الفـــرد النفســـجمية psychophysical و التي تحدد اوجه توافق فالفرد مع بيئته (١٨) .

## ٣- الحرافيش :

هـــم فئة من الشعب تمثل المطحونين /المنبوذين و الذين قد يستجيبون ســـلباً أحداث المجتمع وقد عبر عنهم نجيب محفوظ فى ملحمته الشهيرة ملحمة الحرافيش (١٩).

تســـاؤل الدراسة : كيف كانت نهاية الأشخاص فى ملحمة الحرافيش ؟ و ما دلالة ذلك ؟

## عينة الدراسة :

روايـــة ملحمـــة الحرافـــيش : المـــنهج المستخدم : تحليل المضمون content analysis محاولين استنباط النهاية من خلال تحليل مضمون حياة الشخص ككل و كيف كانت نهايته ؟

# الدراسة

## أولا : الاختفاء :

## انقسم الاختفاء إلى :

### أ-١- الاختفاء / الحضور العظيم

ظـــل عاشور الناجي و الذي اختفى فجأة حين بلغ الستين هو الحاضر الغائـــب طـــوال الملحمة ،يتم تذكيره إذا جاء أحد من أحفاده و تولى أمور الفـــتونة ، و حاول قدر طاقته إقامة العدل ، و نصر المظلوم ، و كذا يتم تذكـــره كلما حاق بأي فتوة (أو ذي منصب ؟ أي لعنة أو ضرر يتم تذكر عهـــد الناجـــي و ظل طوال الملحمة كنموذج و رمز – مثله فى ذلك مثل الجـــبلاوى – ولعـــل الحـــوار الـــذي دار بيـــن ســـليمان تناجى وولديه (خضـــر و بكـــر ) يوضح هذا الموقف النموذج (المثال الذي لن يتكرر لشخصية عاشور الناجي )

قال ابنه بكر :

ولكن جدنا عاشور كان يحب الحياة الفاخرة !

فسأله بغضب :

– من أنت لكي تفهم المعلم عاشور ؟

– هكذا قيل يا أبى ...

– لا يفهم عاشورٍ إلا من اشتعل قلبه بالشرارة المقدسة .

– ألم يحتل دار البنان ؟

– فقال سليمان محتداً :

– معجزته في الحلم و العهد

- فقال بكر بجرأة غير محمودة :
- كان يستطيع أن يهرب من الشرطة ،بلا حلم احتقن وجه سليمان بالدم و هتف
- هكذا نتكلم عن الناجي ( ص ١٥٨ )

و الأمـــثلة كثـــيرة في الملحمة على عظمة عاشور الناجي .. انظر مثلا حين تولى جلال الفتوة ماذا قال له أبوه :

- ألا تريد أن تحتذي مثال عاشور الناجي ؟
- أين عاشور الناجي ؟
- في أعلى عليين يا بنى ( ص٤٠٦ )
-

و كذا في موقف آخر إذ دار حوار بين جلال و عبد العطار الخالق .

- سمعت و لاش* عن حكاية عاشور الناجي ؟
- حكاية محفوظة يا معلم فقال جلال بعد تردد .
- أني اعتقد انه مازال حياً !.. وواصل جلال قائلاً
- وأنه لم يمت .

و قال عبد الخالق

كان عاشور رجلاً صالحاً و الموت لا يخطئ الصالحين

٤١٨:٤١٩ كذلــك ظهر نموذج عاشور الناجي في الحكاية التاسعة ، حين أراد فــتح الــباب أن يعيد العدل المفقود في زمن اشتد فيه الوباء ، و كان يــوزع علـــى الـــناس الصـــدقات لـــيلاً و هو يقول من عاشور الناجي ( مـــن ص ٤٩٦ :٥٠١ ) و لعـــل عاشور الناجي كرمز يرمز إلى العدل و المســـاواة ، و إقامة مجتمع فاضل لا يوجد به تفاوت طبقي عنيف ، ولا

نـــريد أن نخـــوض فـــي تفسيرات دينية متوغلة كما يفهم و يفعل البعض ذلك .

### ١-٢-الاختفاء /الحضور العظيم المباغت :

ظـــل الحرافيش طوال الملحمة يمثلون الحاضر / الغائب ينفعلون مع الأحـــداث سلباً أو أجابا دون أن يتعدى مجرد الانفعال الصامت أو اجترار الأفكـــار و المشـــاعر بيد أن الحرافيش كقوة مسيطرة يحسب لها القنوات حساباً تجلت في موقفين الأول : حين تحكم سماحة شمس الدين الناجي في الأسعار ، و شحت البضائع و كان يقوم – فتح الباب – الحكاية التاسعة – بـــتوزيع البضائع عليهم ليلاً .. قائلاً لهم أنها من عاشور الناجي ، و لكن افتضـــح أمـــره ، و كاد أن يصفى دمه – بعد أن تم تعليقه في السقف ، و هـــنا هـــب الحرافـــيش و انتقموا من الفتوة و أعوانه بل و سيطروا على الحارة تماماً (ص٥٠١) .

**الثانـي :** لقاء عاشور ربيع الناجي مع الحرافيش المطرودين في ساحة الدراســـة و دار بينهم حوار عن كيف تعود الحارة إلى عهدها السعيد بعد أن استشـــرى الظلم ، و هنا زلزل الحرافيش أركان الحارة و الحارة هي رمـــز المجتمع لدرجة أن الفتوة و أعوانه قد هربوا ، ولم يبق في الحارة إلا عاشور و الحرافيش (ص ٥٨٨) .

هـــذان هما الموقفان اللذان أبرزهما محفوظ طوال الملحمة وفى ذلك تأكـــيد لـــدور الحرافـــيش المؤثـــر – و ليس السلبي / الخانع /الملتقى – الإيجابي في تغيير مجريات الأمور

## ب-١- الاختفاء – الاختفاء المشين :

هناك عدة مواقف نذكر منهما موقفين :-

**الأول :** اخـــتفاء ســـنية العمرى – زوجة سليمان شمس الدين الناجى الثانـــية مـــع شـــاب ســـقاء ، و كانـــت كارثة جعلت ابنها بكر ينكس رأســـه ،و قد اختفت بعد أن ،"فاحت رائحتها "، و قد طلقها سليمان – بعـــد أن أصيب بالشلل ( الحكاية الثالثة ) الثانى : اختفاء بكر بعد أن توهـــم انه قتل زوجه ، و قد حاول قتل شقيقه خضر – بعد أن حاول إنقاذه من الإفلاس ( الحكاية الثالثة ايضاً ).

ب-٢- الاخـــتفاء / الحضـــور الـــنادر : و يـــتجلى ذلك فى موقف – أو حكايـــة – ســـماحة بكـــر سليمان الناجى – و الذى ظل طريدا لجريمة لم يرتكـــبها بل اتهم بها ظلماً و عدواناً – جريمة قتل عجمية – وكذا ظنه انه قـــتل المخبر زوج محاسن البولاقية ، عاد إلي الحارة و هو ضرير .. بعد كـــل هـــذا العمـــر من الاختفاء و الخوف من القبض عليه ،و قد وصف محفوظ هذا الموقف – موقف الاحتضار .

تدهـــورت صـــحة سماحة فاضمحل سريعاً و ما لبث أن اسلم الروح و هو يتأهب للنوم عقب صلاة الفجر ، و كأنه لم يرجع من منفاه إلا ليدفن فى جوار شمس الدين الناجى (ص٣١٩)

### ب-٣- الاختفاء / الحضور المنقذ :

لعلــك حضــور خضر سليمان الناجى ، حين قدم لينقذ شقيقه بكـــر من الإفلاس ، و قد قام بواجبه ، رغم اعتراض شقيقه بل و محاولة قـــتله ، و لـــم يكتف بذلك بل تولى رعاية أولاد شقيقه بكر ،و أولاده أحد أولاد ( ســـماحة بكـــر الـــناجى ) ، أما أولاد شقيقه بكر فكانوا رضوان و صفية و سماحة و أولاد سماحة ( وحيدة و قرة و رمانة ) .

### ب-٤- الاختفاء / الحضور المثير :

لعل حكاية زهيرة ، تلك الفتاة الصغير ذات الست أعوام و التى عملت فـــى مـــنزل المعلـــم ،عزيز و حين طلبتها أمها لكى تتزوج من عبد ربه الفـــران ، وحيـــن رآهـــا المعلم عزيز هاجت أفكاره و تساءل : أين كان يختبـــئ هـــذا الكنز ، و قد خصص لها نجيب محفوظ حكاية أطلق عليها اسم" شهد الملكة " لان رجالا كثيرين أحبوها و تصارعوا من اجلها و قتل مـــن قُـبِـل و أســـتبعد أو نفـــى من نفى حتى قتلها أحد أزواجها السابقين ( محمد أنور ) الحكاية السادسة ) .

### ب-٥- الاختفاء / اختفاء بلا اثر :

لعـــل اخـــتفاء درويـــش زيـــدان عقب اختفاء عاشور الناجى ، و الطلاق بعض الشائعات أن درويش وراء هذا الاختفاء و خشيته من الانـــتقام ،و هنا اقترح عليه شيخ الحارة ضرورة الهرب و قد اختفى درويـــش زيدان فجأة ،فلم يعد يعرف أن كان هرب أم قتل و لم يسأل

أحـــد عـــنه ، و تجاهله محمود قطائف تماماً و ما لبث أن حل محله عليوة أبو راسين بياع المترو و كأن درويش لم يكن (ص ٩٥) .

### ب - ٦ - الاختفاء / الاختفاء الدائم :

ويظهـــر فـــى حكاية ضياء أخو فائز و عاشور - الذى حاول أن ينقذ أمه و أخـــيه عاشـــور من السكن فى القبور - بعد فضيحة فائز و انتحاره - و لكـــنهما رفضا لاقتناعهما أنه قد سلك مسلكا غير شريف ، وظل ضياء مختفياً و لم يظهر مرة أخرى أبدا (الحكاية العاشرة ) .

## ثانياً القتل :

و قد انقسم إلى الأنواع الآتية

### ١ - أ - القتل للانتقام :

وقد حفلت الملحمة بالعديد من هذه النماذج نذكر منها : -

قـــتل محمد أنور لزهيرة زوجته و التى اجبر على تطليقها و لكنه لم يفعل و هرب و ظل مختبئاً يتتبع أخبارها و بعد أن تزوجت من المعلم عزيـــز ، و قامـــت حروب من اجلها ، ثم نقل فؤاد عبد التواب المأمور ، حـــتى كانت ذات يوم و قد ، غادرت جامع الحسين كالعادة وسط مظاهرة من الشحاذين و المجانيب .. و همت بالصعود عندما سمعت صوتاً قريباً يهمس "زهيرة "

نظـــرت نحـــو الصوت فرأت محمد أنور يطالعها بوجه الموت ،انذعرت مـــنفعة نحـــو الدوكارو ولكنه رفع عصا غليظة و هوى ، بكل قوته على رأسها النبيل الجميل فتهاوت على الأرض صارخة.

و ظـــل يضرب الرأس بوحشية حتى هشمها تماماً غير مبال ببكاء جلال و راض (ص٣٧٨) .

- قـــتل رمانـــة لشقيقة قرة عين ، حيث كان قرة عين مثال الاجتهاد فى الـــتجارة حـــتى يســـتقل كل بتجارته ،فزع رمانة ،و خرج قرة للتجارة – ولكنه لم يعد .. ودارت الأحداث .. حتى اعترف رمانة لعزيز قائلاً :

اعترف لك بأننى مدبر قتل أبيك فقال عزيز بأسى :

- اعرف ذلك
- فقال بحزن .
- انـــه مدفـــون بملابســـه فـــى قبر وحيد لصق مقام الشيخ يونس ( ص٣٢١:٣٢٠).
- قـــتل زيـــنات الشـــقراء لجـــلال بالسم ،حيث كانت تحبه لدرجة العـــبادة ، بل و انقطعت من الدارة و أخلصت له و كان أملها أن يقترن بها و تصبح سيدة فى بيتها ، غير انه بعد أن انقضى العام المحـــدد له مـــن العـــزلة لكى يدخل إلى الخلود حتى فوجئت به يتناســـها تماماً ، و يغامر فى الدخول فى علاقات مع غيرها ، فما كـــان منها إلا أن وضعت له السم فى الخمر و ظل حلال يجرع و هى تقول له :

لقد جرعت من السم ما يكفى لقتل فيل ؟

- أنت ؟

- أنت حبيبي .

و ضــحك و لكنه سرعان ما كف عن الضحك فى إعياء فقالت و هى تــبكى – قتلــتك لأقتل حياة العذاب (ص٤٣٨) انه انتقام المرأة نتيجة عدم إخلاص الرجل لها .

- قــتل الفــتوة القللى لعجمية ( بنت صباح كودية الزار ) نكاية فى سماحة الناجى ،و الذى كان قد ابلغه أنه يريد الزواج منها و يدعو الفــتوة و رجالــه إلــى حضور حفل القران ،بيد أن الفتوة أخبره بضــرورة أن يــتخلى هــو عن هذه الزيجة بل و يذهب بنفسه ليخطب له عجمية من والدها و انصاع للأمر بيد انه كان قد لتفق مع عجمية على ضرورة الهرب و فعلاً انتظرها و لكمنها قتلت ، أو اتهم سماحة بقتلها و بدأ رحلة المطاردة . الحكاية الرابعة ) .

## - ٢-أ : القتل بهدف السرقة :

- مــثل قــتل رمانة للشيخة ضياء بعد أن تمادى فى حياة العربدة و السكر و المخدرات و ذات مساء اشتد به السكر فمضى مترنحاً إلــي جــناح الشيخة ضياء ، فدار حول مجلسها وهو يقهقه وراح يقول ساخراً:

- انك اصل البلاهة و البلاء .

وظلت المرأة غائبة فقال

- إني فى حاجة إلي نقودك فأين تكتنزيها يا معتوهة ؟

و قبض على يدها و أنهضها بعنف ففزعت المرأة و ضربته بالمبخرة فـــى وجهـــه عـــند ذلك جن غضبه فقبض على عنقها وشد بعنف فلم يتركها إلا جثه هامدة (ص٣٢٠).

### ٢- ج- القتل بسبب الغيرة :

مـــثل قتل فؤاد عبد التواب للفتوة نوح الغراب من اجل أن يتزوج بزهـــيرة ، و قـــد حـــدث و أرســـل إلـــيها كـــل منهما يريد الزواج مـــنها ، فاشترطت على نوح الغراب مثلاً – أن يطلق نسائه الأربع ، و قد حدث ذلك فعلاً ، و سارت زفة نوح الغراب فى موكب ضخم أو فـــى أمان من عهود الصداقة بينه و بين فتوات الحارة المجاورة ،غير انـــه حدث مفاجأة فى الدراسة لم يتوقعها أحد إذ تحرش فتوة العطوف بالـــزفة خارقاً العهد و الزفة .. و إذا برصاصة تصيب العريس فترديه قتيلاً (ص٣٦٩:٣٦٨).

### ٣- د : القتل رد الاعتبار إلى الذات :

مـــثل تلك المعركة أو التحدي الذى بدأه شمس الدين جلال الناجى تجـــاه الفتوة سمعة القلابش حيث اجبره الفتوة على ضرورة أن يكتب كـــل أملاكه باسم ابنتيه بيد أن شمس الدين رفض و قامت معركة بين الرجليـــن .. و تدخل البعض لصالح أحدهما حي انتهت إلى قتل الفتوة و قفز سماحة شمس الدين الناجى إلى الفتوة ( الحكاية الثامنة ) .

## ٢- هـ - قتل الرمز :

مــثل قتل الفتوة حميد لفتح الباب .. ذلك الشاب الذى تحدى بطش سـماحة و جشـعه و كـان يسرق من المخازن ليلاً و يوزعه على الحرافـيش قائلاً لهم أنها من عاشور الناجى حتى قبض عليه ، و أمر سـماحة أن يعلــق مــن قدميه فى السقف حتى يصفى دمه ، بيد أن الحرافـيش أنقـذوه ، و تولى الفتونة لكنه عين حميد و دنقل ، حيث اسـتأثر حميد بالفتوة ، وحدد خطوات فتح الباب و منع خروجه نهائياً قـائلاً له : انك غير مأمون الجانب فابق حيث أنت و سيجيئك رزقك بـلا تعـب (ص٥٠٨) و لكن ذات صباح عثر عليه جثة مهشمة فى اسـفل المئذنة المجنونة " .. هكذا أنهت سيرة فتح الباب و جهاده مثل صحوة قصيرة مشرقة فى يوم طويل ملبد بالغيوم (ص٥٠٨) .

## ٢- ط: القتل بهدف الإصلاح :

مــثل قــتل شمس الدين جلال الناجى لأبيه جلال (الثانى ) الابن غــير الشرعىْ لجلال الآل إذ بعد أن توفيت والدته ( زينات ) الشقراء انقلبت حياته من النقيض إلى النقيض و قد ذهب شمس الدين إلى أبيه فى البوظة ليمنعه من التهتك و الرقص أمام السكارى و نشبت معركة بين الابن و أبيه وحمل أبيه إلى البيت فقام جلال إلى عنق زوجه يريد قـتلها .. هــنا فــزع شمس الدين (الابن ) و حذر والده من انه بذلك سـيقتل والدتــه ، بيد أن انه لم يحفل بمنعه ، "فزع شمس الدين إلى مقعــد خشبي فرفعه و هوى به على رأسه بقوة جنونية (ص٤٥٣) .. ثــم تــتطور الأحــداث بســرعة مذهلة فيموت جلال متأثرا من هذه

الضـــربة ، و يلقـــب شـــمس الديـــن فـــى الحـــارة بقـــاتل أبـــيه (الحكاية الثامنة ) .

### ٢-ظ- : القتل بهدف القصاص :

و هــو ذلــك القتل الذى تمارسه السلطــــــة بهـــــدف إقامة عدل ، و تطبيق القانون ، و لعل واقعة القبض على محمد أنور .. قاتل زهيرة و إعدامه دليل على ذلك ، وان كان يلاحظ بصفة عامة ، ورغم وجــود شيخ الحارة .و هو ممثل السلطة كقوة قانونية ،وكعين للدولة إلا أن دوره فى مجريات الأمور يكاد بكون معدوماً، كما يظهـــــــر دوره بتمـــيزه إلى الفتوة ،أحياناً إلصاقا الجرائم التى تتم بأناس لم يرتكبوا هذه الجرائم .

### ثالثا: الموت :

رغم أن الموت هو النهاية المحتومة لجميع البشــر،إلا أن له العديد مـــن الصـــور نوجزها فيما يلى :- ٣-أ: الموت الطبيعى : وهو الذى يحدث نتيجة التقدم فى العمر و قد تحدث عنه نجيب محفوظ بسرعة فى ســياق الملحمـــة وكان هذا الأمر شئ عادى دفن فتحية زوجة أبيه شهد مـــوت الشـــيخ طلبة القاضي أمام الزاوية و سعيد الفقى شيخ الحارة و عثمان الدرزى الخمار (٢٠٥:٢٠٤).

### ٣-ب : مقاومة الموت و عدم الاستسلام له بسهولة :

مـــثل عاشـــور شـــمس الدين الناجى ذلك الفتوة الذى أول قدر طاقته الاستمرار على عهد عاشور لعظيم ، ورغم تقدمه فى السن إلا انه ظل

محافظـــاً علـــى قوتـــه لآخر لحظة ، رافضاً الخلود إلى الراحة وعدت صـــلابته البطولـــية أسطورة و كرامة من كرامات -الأولياء حتى سمى بقاهر الشيخوخة والمرض (ص١٤٦).

### ٣- ج: الموت هماً : وسوف نكتفي بذكر مثالين :

- **الأول :** موت فله حين طلبت من ابنها شمس الدين عاشور الناجى أن تـــتزوج مـــن عنـــتر الخشاب و لكنه رفض بحجة أن زوجة عاشـــور العظـــيم لا يصح أن تتزوج بل و هدد عنتر الخشاب و حين تأكدت من الرفض تصاب فلة بحمى تتدهور صحتها ولاتنفع معهـــا وصـــفات العطار ، وترنو أليه صامتة ، و تعجز حتى عن البكاء .. وتسلم الروح فى جوف الليل (ص١٢٨).

**الثانى :** مـــوت سليمان شمس الدين الناجى حين مر بأكبر ضغطين فى حياته أ- نشوب معركة بين ولديه (بكر و خضر ) حيث اتهم الأول شقيقه بأنه يحرض زوجه على خيانته مما أدى إلى هروب الثانى .

أ- الســـمعة السيئة لزوجته سنية هانم السمرى .بل و هروبها مع شاب سقاء بعد أن طلقها سليمان الناجى .

### ٣ - د : الموت مرضاً :-

مـــثل مـــوت قمر و هى فى ريعان شبابها و كانت تستعد للزفاف من جـــلال إذ المت بها ولكن برد قمر بقمر غير أنها لم تعطل الاستعدادات المتوثـــبة للـــزفاف . و اندفعـــت الوعكة فى طريق مجهول فارتفعت

الحرارة و اضطربت الأنفاس و اشتد الآلام و تسلل الذبول إلى الوردة الـــناظرة .. مثل عدو ماكر خسيس خائن ، ولزمت الفراش .. بلا حول فخبـــت نظـــرتها و اصفر لونها ووهن صوتاه .. و انطلق صوات في جوف الليل يعلن صعود روح إلى مستقرها (ص٣٩٦).

### ٣ – ﻫ : الموت لأسباب خارجية :

مـــثل مـــوت والدة محاسن البولاقية حيث كانت ضريرة و قد ماتت غريـــبة حيث سقطت من نافذة الصالة المطلة على المنور فتهشم رأسها (ص٢٣٣) .

### ٣ – و : الموت لأسباب ذاتية :=

مثل موت وحيد سماحة الناجى نتيجة لشذوذه وسمعته السيئة وطرقه لكل ما هو غير مألوف –وهو سلوك اقرب إلى الانتحار –لقد غدا الفتوة مضـــرب الأمـــثال بشذوذه وشراهته فى المر كله لا فى البر كله لا فى الحارة وحدها . وقد عاش بضعة أعوام بعد وفاة أبيه و مات إثر هبوط فى القلب نتيجة الإفراط فى البلبعة (ص٣٢١).

### ٣ – ط – الموت بعيداً عن الأهل : –

مـــثل مـــوت رمانة فى السجن بعد أن قتل الشيخة ضياء كما اعترف لعزيز انه دبر لقتل والده ( وهو فى نفس الآن شقيقه )

## ٣ – ظ – : الموت الجماعي :

وقــد ذكــره محفوظ فى الحكاية الأولى ، ذلك الموت الجماعي الذى يأتى عقب قيئ و إسهال مثل الفيضان ثم ينهار الشخص ويلتهمه الموت (ص٤٥) وقد دبت فى ممر القرافة حياة جديدة ..يسير فيه النفس فى كل بيت نواح ، بين ساعة و أخرى يعلن عن ميت جديد لايفرق هذا الموت الكاسح بين غنى و فقير و قوى ضعيف امرأة و رجل ،عجوز و طفل ، انه يطارد الخلق بهداوة الفناء (ص٥٥)

## ٣ – و : الموت بعد حدوث تغيرات سلبية فى الجسم

لعــل الشي الملفت للنظر فى الملحمة الحرافيش هو ذكر محفوظ حــدوث العمى للعديد من الأشخاص و الذين تتقدم بهم الحياة فقد حدث العمــى لســماحة بكر الناجى ،وكذا حماته وزوجة محاسن البو لاقية،كذا حدوث شلل نصفى لجده سليمات شمس الدين الناجى

## رابعاً : الانتحار :

قدم محفوظ نموذجين له هى :

## أ – الانتحار بسبب الخوف من الفضيحة و العقاب :

-حيث قام فائز بقتل نفسه حيث وجدوا فائز شاخص البصر ملقى الوجــه بــلا حــول ، كأنه متجمد منذ ألف عام ،يسراه مدلاة من حافة الفــراش الوثــير ،تتكون تحته بحيرة من دم فوق السجادة الشيرازي ،

وثمـــة خـــنجر فوق القفطان الكمونى ذو مقبض ذهبى (ص٥٣٠) ولكن لماذا انتحر فائز؟

لقـــد أســـفرت التحقـــيقات و التحريات عن حقائق مفزعة إذا بدا مغامـــراته ببيع الكارو انه استثمر ماله فى الدعارة و القمار و البرمجة و المخـــدرات .. وكـــان يقامـــر بثروات خيالية ،و حال الخسران كان ستدرج الغريم مستعيناً بالنساء و المخدرات فيقتله و يستولي على النقود ثـــم يواريـــه فـــى فناء داره ، وفى آخر مقامرة خسر أمواله جميعاً ثم اضـــطر إلى المقامرة بأملاكه فى شكل عقد بيع صوري فخسرها ايضاً ولـــم يتمكن من قتل غريمه الذى فر بروحه و ماله ،ولما خسر كل شئ اصبح سره مهدداً الانفضاح انتحر (ص٥٣٨) .

## ب - الانتحار بسبب الحزن على الحبيب :-

لعـــل حكايـــة العلاقـــة التى نشبت بين الزوجين ( رئيفة و رمانة ) مثال صـــادق لكـــيف يكـــون الحـــب و الذى يصل إلى درجة التوق بالمحبوب بل و الفـــناء فـــيه ، فلقد كانا يتُماثلان تقريباً فى كل الصفات رغم انهما لم ينجبا و تـــم الطلاق و تزوجت رئيفة بسرعة من رجل آخر ، وجرب رمانة الزواج مـــن أربـــع جاريـــات بهـــدف الإنجـــاب حـــتى تـــأكدا تمامـــاً انهمـــا عقـــيمان .هـــنا انخـــرط فى الخمر و المخدرات وقتل الشيخة ضياء و أودع السجن و حرصت رئيفة على زيارته متحدية بذلك القوانين و الأعراف وحين علمـــت بموتـــه فـــى السجن انتحرت هماً وحزناً عليه ( صفحات متفرقة من الحكاية الخامسة ).

تلــك كانــت باختصار ابرز النتائج التى أسفر عنها تحليل نهاية الأشخاص فى ملحمة الحرافيش.

و لو لخصنا كل كم سبق فى هذا الجدول فيكون كالتالي :

| النهاية | ك | % |
|---|---|---|
| الاختفاء | ٩ | ٣١,٣ |
| القتل | ٨ | ٣٤,٤٨ |
| الموت | ١٠ | ٢٧,٥٩ |
| الانتحار | ٢ | ٦,٩٠ |
| المجموع | ٢٩ | %١٠٠ |

ولكن ما هو تفسير طبيعة كل نهاية ؟

نســتطيع أن نتصور أن الاختفاء يمثل تناقضاً متصلاً على طرفة اخــتفاء ايجابى ( يقود إلى الخلود و يضع الفرد فى موضع الأساطير ) و اخــتفاء ســلبى مشــين و بين هذا و ذاك و يوجد أنواع مختلفة من الاخــتفاء ، و لعل اختفاء عاشور الناجى ( وهو فى الستين من عمره )

و تضارب الأقوال بشأن حقيقة هذا الاختفاء قد جعله الرمز — إلى درجة الأسطورة – طوال الملحمة إذ يمثل العدل و المساواة و مقاومة الظلم و نصرة الحق .. وهى كلها سمات مجردة يتعلق بها البشر . كما أن اختفائها مجسدة فى شخص عاشور الناجى إنما يفيد أن هذه المبادئ خالدة ولا تموت وسوف تظل أمل للبشرية تتعلق بها .

أما الاختفاء السلبى أو المشين فيقصد به عدم مناسبة الفرد لطبيعة البيئة التى يحيا فى كنفها وما تفرضه من قواعد و قو نين وإذا كان الفرد المختفي ينجو بذاته مبتعداً ،فانه يترك الأثر السيئ للذين ينتمي إليهم ويظل هذا الاختفاء – عاراً يلاحق الجيل و لاشك أن هذا يؤكد مقولة انتماء الفرد إلى الجماعة و أن الجماعة تضفي المشروعية و الحماية و الامتداد على الفرد . وهذه الحقيقة قد أكدتها دراسات التحليل النفسي من أن الإنسان – وهو فى اشد حالات العزلة و الوحدة – فى حالات الجنون أو حتى النوم ،إنما يهلوس متخيلا الآخر أو الآخرين إذ بدون الآخر لا توجد الذات.

فهل كان نجيب محفوظ يعنى هذه الحقيقة .. حقيقة أن هناك أشياء يجب أن تختفي عن الأنظار حتى تظل العقول و القلوب تتوق إليها ولا تعانقها أو تلقاها .و أشياء أخري يجب أن تختفي بالرغم مما تتركه فى النفوس من لوعة و أسى .

أما القتل تستطيع أن تتصوره ايضاً متصل على طرفيه قتل مشروعه ( يجب أن تقوم به السلطة الحكمة لتثبيت أركان العدل و المساواة ) و فى الطرف الآخر قتل فردى (رواه دفاعاً عن النفس ) و بين هذا ذاك توجد عدة أنواع .

لكـــى يتضح من خلال أحداث الملحمة كلها تدخل السلطة الحاكمة فـــى الأحداث بالرغم من تواجد ممثل السلطة فى الحارة ( أو المجتمع ) هـــو شـــيخ الحارة . كما أن السلطة لم تتدخل إلا نادراً جداً و فى حالة واحـــدة حيـــن تدخـــل فؤاد عبد التواب المأمور و انتهز الفرصة و قتل غـــريمه نوح الغراب وهو يزف على زهيرة وهذا يطرح قضية السلطة فى المجتمع . و العلاقة بين السلطة و الجريمة ذلك لان شخصية الفرد فـــى أي مجـــتمع مـــا هـــى إلا نتاج لأجهزة التنشئة الاجتماعية و التى تمـــارس علـــى الفـــرد ســـلطاتها ، وقد تشكل هذه الأجهزة الشخصية السوية ، وقد تشكل فى المقابل الشخصية غير السوية ويرى فرويد و اتباعه أن السلطة فى الأساس هى: -

الســـلطة الـــو الدية ،و أن فشل الطفل فى إقامة علاقة حسنة بينه و بين والديه يؤدى إلى نتائج سلبية قد تمتد إلى الحياة .

و يضـــيف شكلين إلى الجانب السلطة الوالدية سلطة الأساتذة فى المدرسة أو الممتحنين ، وكذلك سلطة الرؤساء أو المرشحين .

و هو نفس ما ذهب إليه هر راس .ب انجلين .

أمـــا ايراك فروم Fromm–Erick فيفرق بين السلطة و التسلطية مميزاً بين نوعين من السلطة .

١ – السلطة الرشيدة AUTHORITY –RATIONAL

٢ – السلطة المثبطة AUTHORITY –INHIBITION

للمقارنة بين هذين النوعين يعطينا فروم مثالين هما :

العلاقة بين التلميذ و أستاذة ، و العلاقة بين العبد و سيدة [٢٤] .

كمـــا ان ممارســـة الســـلطة يخـــتلف تـــبعا للبناء الاقتصادى و الاجتماعي و شكل النشاط السائد فى هذا المجتمع السعيد غير السلطة فى المجتمع الأراعى و هكذا [٢٥] .

على بأنه يوجد العديد من العلماء للذين اجتهدوا فى تقديم تفسيرات لأهمـــية الســـلطة أو العوامل التي تقود إلى ضعفها فى بعض الفترات و خاصة أراء ابن خلدون . و ماكس فيبرة و غيرها .

أما فى حالة بزوغ سلطة الفرد و إصراره على ارتكاب الجرائم ، بـــل ممارسة أساليب تجعلة يبتعد عن طائلة العقاب فيعود ذلك إلى العديد مـــن الاسباب ، و لعل ظاهرة ألأخذ بالثأر RAVAGE كمثال يمثل ذلك حيث يعزل الفرد سلطة المجتمع و يقرر حقة فى بوسائلة الفردية [٢٦] .

إذا كـــان محفـــوظ يقوم مفهوم الفتونة ( و هي ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقلة ) بمفاهيم عدة منها يلتزم جادة العدل و المساواه و منها من يناصـــر فئة على حساب فئة أخرى ، و من يفهم الفتونه على اساس أنها مقـــتم و خضـــوع من الجميع له و تسلط على رقاب العباد و لذا فطوال

الملحمـــة و نغمـــة القهر و السلطة الغاشمة من جانب الفرد / الفتوة لها الغلبة طوال الملحمة .. فهل كان يقصد محفوظ بذلك أن الفرد مهما كان لا يصلح لتولى حكم الحارة ( أو المجتمع ) أو الديمقراطية و الحوار ، و الحق فى إبداء الرأى الأخر هو الوسيلة الوحيدة لأنقاذ المجتمع من كبوات و انفعـــالات هوجاء ، حين تنجح فئة ما فى اجتذاب الفتوة صفها فتتوحد به ، و تقهر من خلاله فئة أخرى ؟

أمـــا المـــوت فـــرغم انه حقيقة من الحقائق الواضحة ، فقد أبرز محفوظ العديد من صور الموت ، و التي قد تتحالف العديد من العوامل و الضغوط Stresses على التعجيل بوفاهة الفرد ، و موضحاً فى الآن نفسه عـــامل الفروق الفردية ، و كمثال واضح جداً فى الملحمة كيف إن و حيد ســماحه الــناجى كـــان مدمـــناً الخمر و البوظة و المخدرات و الشذوذ الجنســـى ، و عـــبد ربة الفران كان مدمنا فقط للبوظة و رغم ذلك مات مبكراً جداً و حيداً فى حين أن عبد ربه الفران – و بعد إن بلغ الستين من عمـــرة – قد تزوج و انجب خالد و قلع تماماً عن حياه اللهو و الفجور و امتد به العمر .

و هـــذا المثال على عكس حال جلال الثانى – ابن جلال الأول و الابن غير الشرعى منه – ظل محافظا ورعا و ثيقا حتى بلغ الخمسين من عمـــره – و مع وفاه و الدته ( فى الثمانين من عمرها ) انقلبت حياته من النقيض إلى النقيض .

فهل كان محفوظ بإبرازه لكل هذه الجوانب يؤكد حقيقة إن الموت واقـــع واقع و إن تغيرات الأسباب و تنوعت ، و أن الموت لا يفرق بين صالح و طالح ؟

أمـــا الانـــتحار : فهـــو إقـــدام الشخص على انهاء حياته بنفسة و إرادته – و لأسباب متعددة ، و قد قدم لنا محفوظ – كما سبق و أشرنا– نموذجين للآنتحار و اختلاف أسباب كل محاولة فهل كان يقصد ضرورة إن تقـــدم هـــذه العناصـــر الفاســـدة ( كان فائز مغامر و قاتلاً و لصاً ) و ( رئيفة كانت شريرة و عاقراً و حاقدة ) على ضرورة إن تتخلص من حياتها لأنها بدون جدوى للآخرين ، و أن الحياة إضافة و ابتكار و حب و ســـلام و بدون هذا الهدف النبيل لا يستحق إن يعيش كل من يخالف هذا الـــناموس الطبـــيعى ؟ وإلا يذكرنا ذلك بحديث الرسول – ص– و الذي يقول : إذا أدرك أحدكم الموت و فى يده فسيله فليزرعها يغرسها بالرغم من علمه انه لن يستفيد منها ، و لكن يستفيد الأخرين ، و حتى يترك لها الحياة اكثر اخضراراً و عطاء و أمنا و أماناً .

## خاتمه :

حاولـــنا فى الصفحات السابقة إن نوضح كيف قدم محفوظ نهاية الأشـــخاص فـــى ملحمـــة الحرافـــيش . و قد حاول إن يقدم بانوراما لما يدورفى اعماق النفس الأنسانية، و هذه الدراسة تتمة لدراسة لنا عن قراءة نفسية فى شخصيات ملحمه الحرافيش و هي ملحمة ثرية لكافة الاجتهادات و البحوث و الدراسات .

## المراجع :

( ١ ) فــرج أحمــد فــرج : التحلــيل النفســي ، سعيد رأفت ، ١٩٧٨ (ص ٥ ) .

( ٢ ) فــيولا فــارس الببلاوى : مذكرات فى علم النفس النمو ، جامعة بنها ، كلية التربية غير مبين سنه النشر ، ( من ص ٣ : ٥٨).

( ٣ ) محمــد شــعلان : الإضطراب النفسية فى الاطفال ، ط ، ١٩٧٧ ، (ص ٤٨ : ٤٩ ) ، و الجهــاز المركــزى للكتــب الجامعــية و المدرسية و الوسائل التعليمية .

( ٤ ) E . E rkison : chidhood and society ( Norton . new york , 1950 . )

( ٥ ) محمــد ســمير عــبد الفــتاح : علــم نفــس النمو ، ١٩٩٧ ، ( ١١٦ : ١١٩ ) ، الناشر المؤلف .

( ٦ ) Buss . A . H ,.; ( The psychology faggremion) .

( ٧ ) انظر :

( أ ) ســيجموند فــرويد : معالم التحليل النفسى ، ترجمة محمد عثمان نجاتى ، ط ٧ ، دار الشروق ( من ص ٤٩ : ٥٤).

( ب ) دانـــيل لاجـــاس : المجمـــل فى التحليل النفسى ترجمة : مصطفى زيور ، و عبد السلام النقاش ، طبعه جامعة عين شمس ١٩٧٩ ( من ص ٤٣ : ٥٥ ) .

( ٨ ) انظر :

( أ ) يوســف الحاجى : تصدع الشخصية فى نظريات علم النفس، الهيئة المصرية العامة الكتاب ، ١٩٨٦( من ص ١٦٠ : ١٦٩ )

( ب) خليل قطب ابو قورة : سيكولوجية العدوان ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، العدد ٤١ ( ص ١٠١ ) . عام ١٩٩٦ ، القاهرة.

( ٩ ) سيد عويس : أمثال و تعبيرات شعبية مصرية أكتاب اليوم ، العدد ٣١٦ ، ديسمبر ١٩٩٠ ، ( من ص ١١٤ : ١١٦ ) ، القاهرة .

( ١٠ ) نجيـــب محفوظ ، ملحمة الحرافيش ، ط ٤ ، دار مصر للطباعة، ١٩٨٥ .

( ١١ ) أحمـــد محمد خليفة : مقدمة فى دراسة السلوك الأجرامى ، ط، دار المعارف ، ١٩٦٢ ، ( ص ٨٠ ) .

( ١٢ ) ســامية القطـــان : محاولــــة تفسيرية لسيكولوجية القتل ما بين الجـــيمة و العقـــاب ، مجلـــة علـــم النفس ، العدد : ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ( ص ٣٣ ) .

( ١٣ ) محمـــد حسن غانم : ديناميات صورة السلطة لدى المسجونين، دراسة نفسية مقارنه ، رسالة ماجسيتير غير منشورة ، ١٩٩٠ ، جامعة عين شمس ( ص ١٨ ) .

( ١٤ ) ســيد عويس : الخلود فى حياه المصريين المعاصرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ( من ٤٩ : ٥٤ ) .

( ١٥) أحمـــد محمـــد عـــبد الخالق : قلق الموت ، عالم المعرفة ، العدد ١١١ ، الكويت ١٩٨٧ ، ( من ص ٤٣ : ٤٤ ) .

( ١٦ ) ســـعيد جلال : فى الصحة العقلية و الانحرافات السلوكية ، دار الفكر العربى ، ط ٢ ١٩٨٦ ( ص ٤٦٢ ) .

( ١٧ ) مكـــرم شـــاكر اسكندر : أدباء منتحرون – دراسة نفسية ، دار الراتب الجامعية ، بيروت ١٩٩٢ ، ( من ص ٥ : ٦ ) .

( ١٨ ) فـــرج طـــه : الشخصية و مبادئ علم النفس ، مكتبة الخانجى ، ٥٩٧٩ ( من ص ١١ : ١٦ ) القاهرة .

( ١٩ ) محمد حسن غانم : قراءة فى نفسية شخصيات ملحمة الحرافيش لنجيب محفوظ ، ىدراسة قيد النشر .

( ٢٠ ) محمـــد حســـن غـــانم : دراســـة الماجستير السابقة ، ١٩٩٠ ( ص ١٣ ) .

( ٢١ ) أحمد عزت راجح : سيكولوجية المجرم العائد ، المجلة الجنائية القومية المجلد الأول العدد الثانى ، يوليو ١٩٥٨ ( من ص ٦٦ : ٦٧ ) .

( ٢٢ ) محمد شعلان : راجع ما سبق ، ١٩٧٧ ( من ص ١١ : ٤٥)

( ٢٣ ) هو راس ب . انجلش : علم نفس الطفل : فى ميادين علم النفس النظر ، و التطبيقية ، المجلد الأول ، ترجمة السيد محمد خيرى ، أشرف يوسف مراد ، دار المعارف ، ط ٤ ، ١٩٧٥ ( من ص ١٠٩ : ١١٧ ) .

( ٢٤ ) عبد الستار ابراهيم : ديناميات العلاقة بين التسلطية و قوة الانا، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ، ١٩٦٢ ( من ص ١٨ : ١٩ ) .

( ٢٥ ) أريك فروم : الإنسان الجوهر و المظهر ، ترجمة ، سعد زهران مراجعة لطفى فطيم ، عالم المعرفة العدد : ١٤٠ ، اغسطس ١٩٨٩ ، الكويت ( من ص ٥٧ : ٦٠ ) .

( ٢٦ ) أحمد فائق : الامراض النفسية الاجتماعية – دراسة فى اضطراب علاقة الفرد بالمجتمع ، دار آتون للطباعة و النشر، ١٩٨٢ ( ص ٣٨٥ ) .

-٣-

# الحب والقناع

# قراءة نفسية

# في

# قصة ( الحب والقناع ) لنجيب محفوظ

د.محمد حسن غانم

آداب حلوان ــ علم نفس

يلامس نجيب محفوظ وباقتدار العديد من القضايا النفسية والفلسفية والاجتماعية.

فالقصة تتحدث عن زوجين يوجد بينهما بون شاسع فيما يتعلق بفلسفة كل منهما في الحياة فالزوج قد تنقل بين العديد من الفلسفات الأحادية والاشتراكية والماركسية وأخيرا الوجودية ، في حين أن الزوجة ملتزمة دينيا ، ويحاول الزوج قدر طاقته التمثيل ومجاراتها عكس اتجاهه الحقيقي ، حتى يضيق زرعا بعملية التمثيل أو القناع أو أداء دور غير مؤهل ولا مستعد له فيصارحها بعد أن أنجبت منه بحقيقة فلسفته في الحياة ، وتغضب الزوجة وتترك المنزل، ويحاول أصدقاءه جاهدين أعادتها إليه . ولكن بلا جدوى وعموما فان نجيب محفوظ في هذه القصة الرائعة يتعرض للعديد من القضايا النفسية والاجتماعية والتي سنحاول جاهدين ابرازها . ولعل هذه القضايا:-

---

نجيب محفوظ: "( الحب والقناع ) " ــ مجموعة أهل الهوى ــ روايات الهلال العدد ــ ٢٤٧٩ نوفمبر ١٩٨٨ من ص ١٢٥:١٥٥.

١- قضـــية الشخصـــية الفرق بين القناع الخارجي الذي أ تعامل به مع الآخريـــن ، وقناعي الذاتي ، وما مقدار البون بينهما ، وقدرة الفرد علـــى الـــتوافق بين الشخصية كما يراها أو كما أقدمها للآخرين ، والشخصية كما أعرفها أنا وأدركها

٢- قضـــية التنشئة الاجتماعية وخاصة قضية التربية المتزمتة وانعكاس ذلك على شخصية الفرد فيما بعد ، خاصة إذا كانت هذه التربية إبان سنوات الطفولة المبكرة (الغضة).

٣- الدوافـــع التـــي تكمـــن خلـــف اختيار الزوجة ومدى إشباع الحاجة إلـــى ذلك ، وإذا كان يعرف مقدما أن زوجه على خلاف معه على طـــول الخـــط حـــتى قبل زواجها ـــــ فلماذا الإصرار على الزواج منها ؟

٤- قضـــية البحث عن الهوية ـــــ خاصة إبان فترة الشباب ، وإنعكاس ذلك على شخصية الفرد وعلاقته بنفسه وبالآخرين .

ولو تعرضنا بسرعة لقضية الشخصية فلا شك أن هذا الموضوع يعـــد الأول والأخـــير فى علم النفس ، وعلى الرغم من أهمية موضوع الشخصـــية ، أو علـــى الرغم من أن تعبير الشخصية Personality من أكـــثر التعبيرات شيوعاً حتى فى لغة الحياة اليومية ، مثل قولنا أن فلاناً لـــيس له شخصـــية أو شخصـــيته ضـــعيفة أو قويـــة أو جذابة الخ هذه المسميات ، وبرغم ذلك فإن علماء النفس يجدون صعوبة فى تقديم تعريف متفق عليه من غالبية العلماء ولعدة أسباب منها أن كلمة الشخصية – فى الـــبداية والـــنهاية – مفهوم فرضى ومجرد ، كما أنه يشير – فى الوقت نفســـه – إلـــى جوانب متعددة ومتشابكة فى علاقاتها ، فهناك الجوانب

الجسمية والنفسية والانفعالية والاجتماعية والأخلاقية وهكذا ، إضافة إلى أن العلماء يختلفون فى الزوايا التى ينظرون منها إلى الشخصية ومن هنا تتعدد التعريفات التى قدمت لمفهوم الشخصية لدرجة أن أحد علماء النفس " جـــوردون البورت " قد أحصى ما يتقارب الخمسين تعريفاً للشخصية ، ولـــو انتقلـــنا بعد هذه المقدمة والدخول إلى قلب الأحداث وتقديم تعريف للشخصـــية فنجد أنه فيما يتعلق بيعريف كلمة الشخصية فى اللغة العربية فـــإن كلمة شخصية مشتقة من الفعل " شخصى " ويعنى برز والشخوص هو البروز ، وعلى ذلك فالشخصية هى ما يميز الإنسان ويميزه عن غيره من الناس .

أمـــا فـــى اللغـــات الأجنبـــية فـــإن كلمة شخصية فى الإنجليزية Personality وفـــى الفرنسية Personalite مشتقة من الكلمة اللاتينية Persona ومعـــناها القناع الذي كان يرتديه الممثل فى العصور القديمة لكـــى يعطـــى لنفســـه ملامح الدور الذي يقوم به ، كما أن القناع يعطى للمشاهد بين – أو النظار – فكرة عن طبيعة الدور الذي سيقوم بتمثيله أو تجسيده أو لعبة الممثل ويتضح أن هذا المعنيْ يشبه التعريف التى اعتمدت على الملامح الخارجية والسلوك الظاهر ، ونكتفى بهذا التعريف الذي قدم مـــن الناحية اللغوية دون الغوص فى الاختلافات النظرية والمنهجية بين علماء النفس فيما يتعلق بمفهوم " الشخصية " .

ولقـــد أبـــرز محفوظ مأزق شخصية الزوج " لبيب " والذى ألف معايشة المتناقضات جنباً إلى جنب " كثيراً ما يبدو مصَنفين يناقض أحدهما الآخر فى العواطف والآراء جميعاً ( ص ١٣١ ) . ولذا فإنه فى حواراته وأحاديـــثه مـــع زوجه كان يظهر " القناع ) على عكس ما يبطن / حقيقة مساعدة وشخصيته ).

ولـــذا كـــان يقول لنفسه مذكرا دوما " الممثل يتهادى اليوم على المســـرح وحـــده " ص ١٤٦ ) ، أو حين يضبط نفسه قد تجاوز حد ود الصراحة كان يقول لنفسه " حسبه ما ينفس به عن صدره وعليه الآن أن يـــرجع إلى التمثيل " ص ١٤٩ ) وهكذا . هذا المأزق بين البون الشاسع بيـــن شخصية الحقيقية والقناع (كما يراه الآخرون ) هو سر اضطرابه وتململـــه ، على عكس الزوجة التي كانت مؤمنة من البداية في حين أنه تـــنقل بين كافة الفلسفات الإلحادية وانتهى به الأمر إلى الإلحاد و العبث حيث لا يؤمن بالعمل أو بأداء طقوس الدين ، والزوجة تطالبه ــ بل وتلح عليه ــ بضرورة العمل وأداء شعائر الدين ، وهو يكذب عليها ويدعي أنه يبحث عن عمل ، وأنه يصوم في حين أنه يتناول بسرية الطعام كلما ألح علـــيه الجـــوع ،،(ص١٤٦) ولعل الإلحاح من الزوجة وان الشخصية أو القـــناع الظاهـــر ســـيتهتك لا محالـــة نجـــده يعـــترف لنفسه قـــائلا ( لا مفـــر من فتح المكتب . سيتظاهر بالعمل كما تظاهر بالصوم ،ربما تـــورط في العمل أيضا ـــــ غيرت ظاهره ولا يبعد أن تغير باطنه ذات يـــوم . ربمـــا أدى الصلوات في أوقاتها أيضا . ربما ساقته إلى الحج . الممـــثل يتضـــخم وتترامى أبعاده والشخص الحقيقي يموت ) (ص١٤٧) ولعـــل الاقتـــباس السابق يعبر عن قدرة نجيب محفوظ الفذة في تصوير مـــأزق أو مأساة الزوج ، ولعل مشكلة البون الشاسع بين القناع والحقيقة تعد المدخل الأساسي للصحة النفسية والتكيف adjustment في علم الـــنفس يعنـــي الـــتوازن بين وظائف النفس وهذا يعني أن تقوم الأجهزة النفســـية بوظـــائف بدون صراعات شديدة بحيث ينتج عن ذلك ما يسمى بالتكـــيف الفـــردي ، والـــذي يمكـــن الفرد من تحقيق التكيف مع الوسط الاجتماعـــي والثقافـــي الـــذي يعيش في خضمه ،ولذا كان التكيف عملية ديناميـــية وظيفية أي أنها ليست ثابتة ،كما أنها تهدف إلى أعاده التوازن ،

وقد يلجأ الفرد لا شعوريا إلى اللجوء إلى ميكانزمات أو حيل دفاعية وهذا إظهار عكس ما يبطنه الفرد نجده في وسيلة التكوين العكسي Raction formation ،والمقصـــود بهـــذه الحيلة تكوين سمة شخصية مضادة لدافـــع أو مـــيل غير مرغوب فه يوجد دفينا في الشخص ، بحيث يطرأ تغيير جوهري على هذا الدافع أو الميل يقابله إلى الضد تماما في شعور الشـــخص . وفـــي هذه الحالة يكون شعور الشخص مضادا تماما لما هو موجود بلا شعوره . ولعل المأذق أن الرغبات أو الميول أو الدوافع التي يعالجهـــا أو يتعامل معها الأنا باستخدام سلاح الميكانيزم التكوين العكسي هـــى الرغبات والميول المنبوذة اجتماعيا والتي يقاومها الضمير ، والقيم والمبادئ والأخلاق ، وما تعارف عليه الناس ، هنا يضطر الأنا إلى القيام بالمـــبالغة وإظهار العكس إرضاءً للمجتمع وتمشيا مع قيم الضمير . علما بـــأن كل ذلك يتم على المستوى اللاشعوري بحيث لا يعلم الفرد أنه يقوم بهـــذه العملـــية . بـــيد أن المشكلة في (لبيب) لاحظ الاسم وما يحمله من دلالات ؟؟

أنـــه يعـــي متي يسمح للممثل أن يظهر أو يختفي ، ولا شك أن ذلك كان يكلفـــه الكثـــير مـــن الضبط والمراقبة والمراوغة ، بيد أن البون الشاسع والفجوة تلك لابد لها من الوصول إلي النهاية . والتمثيل والقناع الذي يهظ كاهلـــه ، ويصـــور محفوظ كيفية حل هذا المأذق قائلا (وبصوت غريب مـــتهدج قـــال لهـــا :فتحـــية . اصغي إلى سأفضي إليك بأسرار مذهلة ) (ص١٥٤) .وكانـــت حقا أسرار مذهلة ،لأنه لأول مرة منذ زواجهما يقدم لها نفسه بدون رتوش ولا قناع ولا تمثيل ، والمفاجأة أن الأسرار كانت تمامـــا عكس ما حاول مسايرته ، فلا هو مؤمن ، و يصوم ولا يلتزم ــ حتى ــ بالطقوس الشكلية ، وأنه يعتنق الفلسفة الوجودية العبثية ، كما أنه شـــرير ولديه دوافع مدمرة عدوانية كاسحة ، كما أنه لا يرغب في العمل

ولا يــريده كمـــا أنه يحق على والده ويمقته ، كما أنه هو الذي اغتصبها حين كان يتابعها ليلا وفجأة أطفأت الأنوار فجذبها إلى بيت مهجور حتى أغمى عليها ، وأنه ليس ملاكا ولا خيرا كما أوهمها أو كما تراه.

ولعــل هذه (الفضفاضات) التي قام بها ( لبيب) في محاولة منه لحل أزمة القناع والحقيقة قد جعلته يستريح يختا ر بأرادته الحرة الواعية طـــريقه وتحمـــل مســؤلية هذا الاختيار . لذا فأن الزوجة قد صدمت في الممـــثل / الزوج ، وتركت له البيت ، وترك البيت له دلالة وهو عدم القـــدرة على تواصل الحياة مع رجل قد نجح كل هذا الوقت في خداعها ، وتضـــليلها رغم أنهما على طرفي نقيض ، ففتحية اختارت الأيمان وأداء طقـــوس العبادة ، وليس لديها شيء تخفيه ، ولذا فقد كانت في توافق مع نفسها ، بيد أن الزوج (لبيب) كان على الضد فإذا انتقلنا إلى القضية الثانية وأقصـــد بهـــا التنشئة الاجتماعية Socialition والتي تشير . في علم النفس اجتماعي إلى العملية التي يتعلم عن طريقها الفرد كيف يتكيف مع الجماعـــة عـــند اكتسابه للسلوك الاجتماعي لذي توافق عليه ، ولهذا فأن التنشـــئة تعنـــي باختصار أساليب التعلم التي من خلالها يستطيع الفرد أن يكتســـب أو يتشـــرب الأساليب والعادات والمعارف للجماعة التي ينتمي اليها ، هذه المعرفة تسهل له عملية الاندماج في الجماعة من خلال تعلم ثقافتها ، وتحديد دوره فيها .

ومـــن هنا فان عملية ا لتنشئة هذه ليسلها مرحلة معينة ، بل قد ســتمر مـــدى حياة المرء . لكن الدور الهام والأساسي يكون إبان فترة الطفولة المبترة ،لدرجة أن فرويد (مؤسس مدرسة التحليل النفسي ) يرى أن التربـــية في الطفولة هي أساس الذي تبني عليه شخصية الطفل فيما

بعـــد ، وأ، بذور الصحة والمرض ، السواء أو اللا سواء تكون إبان هذه المرحلة الهامة والحرجة

ولعل مأساة الزوج (لبيب) أن والده كان لواء بالجيش ، وأن والدته توفيت عقـــب ولادتـــه بفترة قصيرة ، ولذا فقد أتسمت تنشئة الوالد لابنه بالقسوة الشديدة ويصف لبيب هذه الخبرة القاسية المبكرة قائلا : (فقد كرس حياته لينشئني على مثال مرسوم بدقة وصرامة ، وراح يصبني في قالبه كأنني طيـــنة لاهويـــة لهـــا ، مســـتعينا بعـــنف لامثـــيل له ، وهكـــذا (تلقيـــت الديـــن وشعائره ، كما تلقيت كل شئ )(ص١٣٧) في وصف والـــده فـــي عـــبارات حاســـمة واضـــحة خاصة بعد وفاة والده قائلا : ( شـــعرت لأول مـــرة بتحرري من قبضة غليظة قاسية ) (ص١٣٦) أو ( بلغ بي النفور لدرجة حملتني على ابني لنفسي مدفنا خاصا حتى لا أرقد ذات يـــوم إلـــي جانبه )(ص١٣٦و١٣٧ ) و(أبي كان جاهلا وإرهابيا ) ( ص١٣٦و١٣٧ ) و(حملني أيضا على صلاة الفجر فكان يغلبني النعاس فـــي الفصـــل ، وحملني على ممارسة الرياضة البدنية كالسباحة والعدو وحمـــل الأثقـــال بالعنف نفسه ، أما ولعي بالقراءة فلم يخفي احتقاره له ولكـــن جهله بالكتب منحني فرصة فريدة للسياحة القافية بعيدا عن رقابته الصـــارمة ) (ص١٣٧) وأيضا يصفه ( ولم يكن يفوق عنفه إلا تعصبه الأعمى لأفكاره من هذه الأفكار أيمانه بالمقاومة الطبيعية واحتقاره الدواء ولمـــا أصـــابتني نـــزلة معوية قرر أن يتركني لمقاومتي الذاتية طالبته المربـــية بإحضار طبيب فرفض ، وميت أهزل من الإسهال يوما بعد يوم حتى رت كالخيال وهو لا يبالي ، كان يمكن أن أفقد حياتي وأشرفت على ذلـــك ، ولكـــنه لم يكترث ) (ص١٣٧) ويواصل لبيب فضفضته حول والـــده ( وأجبرني على الإلتحاق بالكلية الحربية ولم تجد توسلاتي ولا دموعـــي محتجا بأنها كلية الرجال والحكام أيضا ، وأنها ستنقذني من داء

القــراءة الوبــيل ولـــولا وفاته الفجائية .. لما ألتحقت بكلية الحقوق ) (ص١٣٧) ويواصـــل لبيـــب تداعياته ( كان سيئ الظن بالرجال والنساء أيضـــا ) (ص١٣٨) و ( رشـــح لي ذات يوم عروسين هما كريمتا لواء علـــى المعـــاش من أقرانه تاركا لي حرية اختيار أحدهما معتبرا ذلك من ناحيـــته تـــناولا ديمقراطـــيا شاذا ، وكنت احبك كما تعلمين فارحته بذلك معـــتمدا على صداقته القديمة من المرحوم والدك ولكنه أنفجر غاضبا .. بحجة أنه لا ثقة له في بنات الأرامل ) (ص١٣٨) .. وهكذا أخذ يطرح مشـــاعره وأحاسيســـه وانفعالاتـــه علـــى والـــده حتى يصل إلى وصفه ( كان جاهلا ومتعجرفا وقد وجد في الشكل مبتغاه ، وكان يمقت المناقشة ويقـــاتل التســـاؤل البريء ، كان يلاحقني من الصباح الباكر حتى النوم بالأوامر والتعليمات والمراقبة ) (ص١٣٩) .

ولاشك أن هذه القسوة الشديدة ـــ كما يتصورها الأبناء قد تركت فـــي نفســـيته آثارا جد سيئة ، إذا جعلته يتنقل بين كافة الفلسفات ، ورغم حرصه في البداية على القناع مع زوجه إلا أنه يصارحها في لحظة نادرة (اجتاحنـــي الحمـــاس للماركســـية ، كمـــا اجتاحنـــي مـــن قـــبل الألحد والديمقراطية ) (ص١٤٩ ) كما أنه تحت إلحاح زوجه اضطر إلى الكذب ( كما تطبع به في عهد أبيه ) (١٤٢) كما أنه أصبح سريع الوقوع تحـــت سيطرة الصدق أو الكذب ) ( ص١٤٩ ) وأبوه طبعه على سرعة الانقـــياد (ص١٤٩) ، ولذا فأن زوجه تعجب وتصف شخصيته في عبارة نـــادرة محملـــة الدلالـــة والرمـــز ( ما أجدر رحلة تبدأ بالإلحاد وتنتهي بالعبث ) ص ( ص ١٤٩) ، ولعل الاقتباسات السابقة قد أشارت بوضوح تأثـــير التربـــية المنزلـــية مـــن قـــبل الأب الذي توفيت عنه زوجه في ســـن مـــبكر ،وأخذ يمارس أساليب البطش والقسوة والإرغام على طفله

الوحيد ، راغبا في تشكيله وفق ما يريد هو لا ابنه ، والتي قادته بلا جدال إلـــى الــتمرد ، ولكنه تمرد عاجز إذ سرعان ما تخلص الابن من قبضة الأب لــيقع تحــت سيطرة صديق أعاره كتب المادية الجدلية ،وهنا تحول إلـــى التديــن الظاهــر إرضاء للوالد وخشية بطشه وعقابه إلى الإلحاد ، وهكــذا ســارت رحلته حتى عثر مصادفة على كتب في الوجودية فقرأها وتأثر بها ، وهنا أصبح الوجود بالنسبة له عبثيا ، ورغم أن الزوجة كانت تحــثه باســتمرار على ضرورة العمل ، وأن يفتح مكتبا للمحاماة ، إلا أنه كان يراوغها ، بل تصورها كثيرا في تقديمها النصائح له بوالده المتوفي ، ممـــا جعله يسقط الصورة القديمة للأب /الماضي على الزوجة / الحاضر مما جعله يسلك عدة ضروب من المراوغة معها ، وخداعها حتى ألقى في النهاية لها بالقنبلة (مما جعل الزوجة تصدم فيه وتترك له البيت .

فإذا انتقلنا إلى القضية الثالثة وأقصد بها قضية : ما الدوافع التي كانــت تكمــن خلف اختيار الزوجة ــبل والإصرار على الاقتران بها ــ على الرغم من أنها على طرف النقيض معه في كل شئ؟ . فلابد أن ذلك محــتوم الدلالـــة والمعنى . والملفت للنظر أنه كان يسخر من فتحية لأنها كانت معروفة بتدينها وأنها (أمام مسجد أو دولة المؤسسات )(ص١٣٠) ، وشخصــية (فتحــية ) كانت على طرف نقيض تماما مع شخصيته ، إذ كانــت مؤمنة ، وتؤدي العبادات ، تؤمن بقيمة العمل ، على عكسه تماما وهــنا نتساءل : لماذا الإصرار على الارتباط بشخص يتناقض معنا فكرا وســلوكا ؟ لا شــك أن هــذا الإصرار محتوم بالمعنى والدلالة . فالذي يحــرك الســلوك هو الدافع ، وأساليب سلوكنا جميعا ترتبط بصورة قوية بدافــع أمعن كما أن فهم السلوك لا يتأتى إلا إذا فهمنا الدافع إليه ، وأكثر مــن ذلــك أن الفرد قد يتصرف على نحو يضره وهو في هذه الحالة قد

كشــف أن بعض الأفراد يسعون سعيا إلى ارتكاب الجرائم حتى ينكشف أمــرهم ، فــيوقع علـــيهم العقاب ، ومع العقاب يتلاشى الإحساس بالندم (أخطـــأت فعوقبت يبقى كده خلصين ) ثم يعاود ارتكاب السلوك المخالف مرة أخرى ، بل ويجد في ذلك لذة وسرور ، فهل كانت شخصية ( لبيب ) من هذا النوع ؟ إذ أن علاقته بفتحية أنه كان يلاحقها حتى أخبره صديقه (يســـري )مخـــبرا إيـــاه أن يبـــتعد عـــنها لأنهما قد اتفقا على الزواج ) (ص١٢٦وص١٢٧) .إلا أن (يسري أحمد )وقع صريعا لمرض السرطان ومات ، وظلت مخلصة لذكراه ،( بالرغم من عدم دخوله بها ) ، وحاول لبيب قدر طاقته الانتظار حتى تعدت الثلاثين ، إلا أنه في البداية صدته ، وظل مستميتا ومصرا حتى وافقت في النهاية وعد ذلك نصرا حقيقيا له ، بالـــرغم مـــن انفرادها به وأخباره بسر الاعتداء عليها ليلا حين أطفأت الأنـــوار فجأة وكان ما كان (ص١٤٥:١٤٤) . ثم في ثنايا التذكر تعرف أنـــه هـــو الـــذي قام بالاعتداء عليها حين كان يتبعها دون أن تراه حواء الظـــلام المفاجـــئ كطوق نجاة له سرعان ما استغله بعنف .(ص١٤٦) ولعـــل الإصرار على اختيارها أنما نظن أنه كان يشبع لديه احتياجا نفسيا تمـــثل في عدة أشياء منها تمتعها بنوع من الحرية في الحركة والاختيار. وكـــان هو يفتقد إليه ، كما أن والدها كان صديق والده إلا أن موقفه منه كان إيجابيا إذ يصف والدها بأنه متفهم ومثقف غير والده الغبي الجهول الإرهابـــي ، كمـــا أن الإحســـاس بضـــياعها مـــنه حين أخبره صديقه ( يســـري أحمد )أن يبتعد عنها قد جعله لا شعوريا يتشبث بها أكثر ، كما أنه حين عرضها على والده لكي يتزوج منها و رفض والده لذلك ، أصر علـــى اختيارها كنوع من التحدي لوالده والتمرد عليه ، إضافة إلى أن (فتحـــية ) كانت متوافقة نفسيا ، فلا توجد مساحة شاسعة بين القناع الذي تـــرتديه فـــي علاقاتهـــا بالآخرين ، ولا القناع الذي ترتديه في علاقاتها

بذاتهـــا ، هـــذا التوافق ، وردم الهوة بين الداخلي والخارجي كان يفتقد إلـــيه ، كما أنها كانت هادئة /مؤمنة / لها قدرة على الاختيار وتحديد ما تـــريد ، وحتى كانت تمتلك القدرة على الرفض ، على الأقل رفضته هو فـــي البداية كثيرا حين تقدم لخطبتها /.......كل ذلك ولا شك من سمات كانـــت تتمتع بها (شخصية فتحية ) ويفتقد إليها (لبيب) قد جعله يصر ولا شـــعوريا علـــى الإقتران بها ، لدرجة أنه كان يتابعها ، وفرح جدا حين مات يسري أحمد صديقه متأثرا بالسرطان ، كما أنه اعتدى عليها ليلا ، وظل يترقبها وينتظرها حتى بلغت الثلاثين في وقت كانت الأم و المجتمع حريصـــين علـــى زواج البنـــت في سن مبكرة . كما أن إصرارها على ضرورة العمل والتدين (لا عن التزام شكلي إرضاء للآخرين ) عن اقتناع تام وتفهم ....كل ذلك جعل( لبيب ) يصر على الاقتران بها لأنها كانت تشبع له كافة احتياجاته النفسية والتي لا يستطيع بسبب ظروف عدة أهمها قسوة التربية ..

فإذا انتقلنا إلى القضية الرابعة وأقصد بها : الهوية أو البحث عن الذات وخاصة في مرحلة الشباب ، والآثار التي تخلفها في نفس الشباب ، فنجد أن هذه الأزمة ، أقصد أزمه الهوية Idevtity Crisis حيث يثور التســـاؤل الحـــاد والملح (من أنـــــــــا) ؟ هذا التساؤل / الهـــزة يجعل الشـــاب يعـــيد النظر في ذاته من الجذور فيعود يحيا جميع مراحل حياته الســـابقة والتـــي تكون قد دفنت أو تأجلت عند الانتقال في كل مرحلة من مراحل النمو إلى المرحلة التي تلوها ، ولذا فان النجاح في هذا الاكتشاف واعادة تكوين الهوية يقود الفرد إلى النجاح ، أما الفشل في ذلك فانه يقود الشلب إلى ضياع الدور وارتباكه وتخبطه .. وهذا ما حدث بأضبط مع ( لبيـــب) اذ تخـــبط في دوره فعجز عن اكتشاف ذاته ، ولم يختار العمل

الذي يتناسب مع طبيعته ، ورفضه للعمل إنما يعني في أحد دلالاته رفض الانـــتماء إلـــى المجتمع والى الآخرين ، وكذا رفض العطاء لأنه يرى لا شـــعوريا أنه حرم من الحب والرعاية والحوار ، كما أن تخبطه وسط العديـــد مـــن الفلسفات /أحيانا المتناقضة وسرعة انتقاله بل وحماسه لكل فلســفة أنمـــا يعني أن هناك مأزق ، إضافة إلى البون الشاسع بين القناع المـــزيف الخارجي والحقيقة الرابضة في الداخل .. كل هذه المظاهر أنما صـــرخت بوجـــود أزمـــة في الهوية . وتلك عظمة الفن الصادق والذي بصهرنا في بوتقة النفس الإنسانية /الغريبة ....

- ٤ -

# زعبلاوى

# نجيب محفوظ

# قصة "زعبلاوي"

## مجموعة أهل الهوى

روايات الهلال

العدد ٤٧٩، نوفمبر ١٩٨٨

من ص ١١ : ٣٠

كتـــب نجيــب محفوظ هذه القصة عام ١٩٦٢ ، أو بالأحرى نشــرت فـــي هــذا التاريخ ، إذ من الثابت أن محفوظ نادراً ما يؤرخ لأعمالـــه الأدبية ، ذلك لأن نظامه في الكتابة أن له شهوراً محدده كل عــام يكتــب فيها ، و شهوراً أخرى يستكين إلى القراءة و الراحة من الكــتابة ، و قد حدث توقف عن الكتابة فترات طويلة قد تصل إلى عدة أعوام إلا أن ثبت القصص و الروايات المنشورة له تكاد لا تفصح عن هذا الانفصام .

و لعل قصة " زعبلاوي " ترمز إلى الموت أو أن قد عبر عن ذلك في إطار فلسفي و حبكة قصصية جيده ، كما أن الموت له أغنيات ( الــنقدية ) قــد نحتها الشعور الأجمعي من خلال تكرار هذه الظاهرة المحيرة / المقلقة ، و التي نقف أمامها جميعاً لا نستطيع حول و لا قوة و لا دفع و لا صد و لا حتى توسل ، مما يجعلنا نقول أن " البكائية ــ أو العــدوده ــ فن مصري أصيل ، لا نعتقد أن شعباً آخر من شعوب العــالم لديه هذا الطقوس الفني الكبير ، حيث يقوم الأحياء بتأبين الميت و ذكــر مناقــبه و صــفاته و محاســنه ... لأنه يخاطب قطعه شديدة الخصوصــية و العمومية معاً في النفس البشرية ، منطقة الفقد ... فإذا كــان الإحســاس بــالفقد هو الدافع لهذا الفناء ، فإن الفناء سرعان ما يضعك أمام الفقد نفسه " [١] . و ليس هذا فحسب بل استطاع المصري أن يضــع بكائية أو عدوده ــ لكل حاله على حده ، فحالة الرجل الذي مات دون أولاد ، يختلف عن حال الرجل الذي مات و ترك بنات فقط، أو بنات و صبيان .. و هكذا . [٢]

ذلــك أن بطــل قصـــة زعبلاوي كان يردد و هو صغير هذه الأغنــ / العــدوده :" الدنيا مالها يا زعبلاوي شقلبوا حالها و خلوها

مـــاوى"ص١١ فالذي " يقلب الحال " و يغير الأمور ، و يترك الفراغ ( ماوى ) لا شك أنه الموت أو قل الفقيد و الضياع . كما أن الموت له فلســفه غامضـــة قــد لا يعيها الأطفال و الصغار . و لذا فحين سئل الـــراوي والـــده عـــن زعبلاوي ( الموت ) ماذا فعل الأب إزاء هذا الاستفســـار و الســؤال الكبير ذو الإجابة الأكثر تعقيداً و غموضاً : " رهقنــــي بنظره مسترده كأنما شك في استعدادي لفهم الجواب . لكنه قـــال : فلتحل بك بركته . إنه صار من أولياء الله ، و شيال الهموم و المتاعب و ك لا ه لمت غماً " ( ص ١١ ) .

كما أن الموت ليس له مكان محدد أو معلوم ، و لا أحد يعرف متى يحل أو متى يرحل ، يزور أو يزار ، كما أن الموت يكون راحه حين يأس الفرد من البحث عن دواء ناجح لأي داء مزمن لا علاج له مثل الشيخوخة / العجز / الهرم و هي حالات توضح بجلاء أن رحلة الـــنمو لابـــد أن تصل إليها وحين ذاك يبدأ الكائن في تدهور قدراته ، يشعر بهذا و يشعر به أيضاً المحيطين ، ولا عجب فقد استطاع بعض علمـــاء النفس تصنيف مرض "خجل الشيخوخة " Senile dementia وهو اضطراب عقلي يصيب الشخصية نتيجة تقدمها في السن ، ولعل مـــن أهـــم أعراضـــه : نقـــص في الذاكرة خاصة للأحداث القريبة ، والـــنقص العقلي خاصة في القدرة على التركيز ، و الأنانية ، و نقص الاهتمام بالأحداث الجارية ، إضافة إلى سرعة الغضب و التقلب وعدم الثبات الانفعالي.(٣)

ولـــذا فـــإن الراوي يصف الحنين إلى الموت على أساس أنه الـــدواء قـــائلاً : " حين أصابني الداء الذي لا دواء منه ، و سدت في وجهـــي الســـبل ، و طوقنـــي اليأس فخطر ببالي ما سمعته على عهد طفولتي و تساءلت : لم لا أبحث عن الشيخ زعبلاوي ؟ " ص ١١ .

وعـــدم تحديد مكان أو ساعة الموت ، لأنه يأتي بغتت قد عبر عنه نجيب محفوظ بعدة عبارات محملة بالعديد من الدلالات مثل بحث عنه عند الشيخ قمر " و هو شيخ من رجال الدين المشتغلين بالمحاماة الشـــرعية " ص ١١ . و لعـــل هـــذا الرمز يوضح أن الدين هو العلم الوحيد الذي أخبر عن الموت و معير الإنسان بعده ، ولذا فقد جاء ذكر هذا الشيخ في بداية رحلة البحث و ذهاب الراوي لمقابلته و حثه على الكـــلام ، ثـــم حديثه الواضح ـــ الذي لا جدال بعده ـــ حين سأله عن الشيخ الزعبلاوي " ـــ أكان ولياً حقاً ؟

كنا نراه معجزه " ص ١٢ . و رغم ذلك أكد له أن الزعبلاوي لم يمت و لكنه " يقيم بربع البرجاوي بالأزهر " ص ١٢ . و هنا أيضاً ديني لارتباط الأخبار عن الموت بالدين .

عموماً فأن الموت في الدين الإسلامي ـــ على سبيل المثالـــ " فهـــو ذلـــك المجهول الذي يبث الخوف و الرهبة في النفوس ، و لكنه قضـــاء الله و حكمته في أن يعيش الإنسان عمراً زائلاً في الدنيا ، ثم يعـــيش عمـــراً خـــالداً في الآخرة " و إنا لنحن نحيي و نميت و نحن الوارثـــون " ( الحجر ـــ ٢٣ ) ٢ " و ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً " ( آل عمران ـــ ١٤٥ ) ، و اليوم الآخر أصل قوي من أهم أصول الدين الإسلامي ، لذا أهتم القرآن الكريم به ، و كما أن للحياة حكمه ، كذلك فإن للموت حكمه و غاية ، و تكتمل الحكمتان في اختـــبار الإنسان و امتحانه في حياة أخرى باقيه : " تبارك الذي بيده الملـــك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الحياة و الموت ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، و هو العزيز الغفور " ( الملك : ١ ـــ ٢ )[٤] .

و حين ذهب البطل الراوي للبحث عن زعبلاوي ، و السؤال عـــنه " فأتضح أن عدداً وافراً منهم لم يسمع عنه ، و آخرين تحسروا

على أيامه الحلوه و إن جهلوا مكانه ، والبعض سخر منه بلا حيطة و نعــتوه بالدجل ، و نصحوني أن أعرض نفسي على دكتور كأنني لم أفعــل " ص ١٢ ، و لعــل هذا يشير إلى التناقض و التي هل المتعمد للموت ، و اختلاف الموقف منه ، بين متجاهل و متحسر على أيامه ، و شامت ( أو يخدع نفسه أن الموت بعيد عنه ) .

و الواقع فإن هناك العديد من العلوم النفسية التي اهتمت بمسألة قلق الموت و الخوف منه، و سوف نشير إلى بعضاً منها بعد أن ينهي الراوي من البحث عن زعبلاوي . و رغم أن الناس نصحوه ــ ضمن مــا نصــحوه به ــ أن يبحث لعلاجه عند أي طبيب ، وهو بالفعل قد فعــل، إلا أنه فيما يبدو قد وقف الطب و العلم عاجزين عن إيجاد حل لمشكلته المزمنة ، بداخله احتياج نفسي و سعي حثيث إلى التخلص من الآلام المزمنة حتى و إن كان فيها موت حين يقابل زعبلاوي . و الذي ذهب بدوره إلى شيخ الحارة ( رمز للسلطة و التحكم في حركة الأفراد دخولاً و خروجاً ، سجناً أو هروباً ) . و دار بين الراوي و الشيخ هذا الحوار:

" ــ إنــي في حاجه إلى الشيخ زعبلاوي . فرمقني بدهشة كما رمقني السابقون من قبل ، و أبتسم عن أسنان مذهبه و هو يقول :

ــ علــى أي حــال فهو حي لم يمت . و لكن لا مسكن له و هذا هو الخــازوق . ربما صادفته و أنت خارج من هنا على غير ميعاد ، و ربما قضيت الأيام و الشهور بحثاً عنه دون جدوى .

ــ حتى أنت لا تستطيع أن تجده ؟!

ــ حتى أنا . إنه رجل يحير العقول ، و لكن أحمد ربنا على أنه مازال حياً . و نظر إلي ملياً ثم تمتم.

ـــ الظاهر أن حالتك شديدة .

ـــ جداً .

ـــ كان الله في عونك . لكنك لم تستعين بالعقل ؟! ص ١٤

ولعل العبارة الأخيرة التي قالها شيخ الحارة " لم تستعين بالعقل " يقصـــد بهـــا أن يكف عن البحث عن الموت ، لأن العقل وحده يعي شواهد الموت و ضحاياه بالرغم من أن العقل يقف عاجزاً أمام جبروته و سلطته و سطوته و التي لا يحدها حدود . كما أن العبارة هذه تعني مـــن جهـــه أخرى أن أصحاب المناصب و السلطه لا يريدون أبداً أن يبرحوا أماكنهم حتى أمام نداء الموت ، إذ يغرهم الأمل القصير في أن السلطه و بريقها ، و الامتلاك سيصد عنه غائلة الموت .

و تستمر رحلة البحث عن زعبلاوي فيذهب إلى حسين الخياط و الـــذي كان منهمكاً في كتابه لفظ الجلالة " الله " و هو رمز جيد أن علـــم المـــوت عند الله وحده ، و المعنى الآخر أن الكتابة من الأشياء الخـــالدة التـــي لا تموت ، و قد عبر عن ذلك نجيب محفوظ من قبل بذهـــاب الـــراوي للبحـــث عـــن زعـــبلاوي عند بائع الكتب القديمة (ص ١٢). و قد عبر " حسين الخياط " ( رمز الكتابة و الخلود و حفظ التراث الإنساني و نقله إلى الأجيال و تطويره و الإضافة إليه ) .

" ـــ هو صديقك . أليس كذلك ؟

ـــ كـــان يا ما كان . الرجل اللغز . يقبل عليك حتى يظنوه قريبك ، و يختفي فكأنه ما كان . لكن لا لوم على الأولياء " ص ١٥

و يتواصل البحث عن اللغز / الموت / الزعبلاوي ، ذلك الذي تظن أ · قريب و فجأة يختفي ، أو تظن أنه بعيد جداً و في فجأة يظهر

بلا مقدمات .. أليست هذه الصفات تنطبق على الموت و لا أحد يلومه إن قرب أو بعد ، حط أو رحل لأنه جند ووكل من أولياء الله . تكون المحطـــة التالــية الذهاب إلى ملحن معروف ، و لعل رمز التلحين و الموســيقى يرتــبط بالموت فعليه التعديد و التجويد للقرآن الكريم أو التراتيل أو القداس .. كل هذه الأنماط و لا شك مرتبطة بعملية الموت ،و طقوسه وحين سأل الراوي الملحن عنه مندهشاً " أله في الطرب ؟!

ــ هــو الطرب نفسه ، و صوته عند الكلام جميل جداً ، ما أن تسمعه حتى ترغب في الغناء ، و تصيح أريحيه الخلق في صدرك .
ــ كيف يشفي من المتاعب التي يعجز عنها البشر ؟
ــ هذا سره ، و لعلك تظفر به عند اللقاء " ص ١٧ .

و يتواصــل مشوار البحث ، و الوصول إلى قمة الفلسفة في وصــف الموتى إذ ينصح الملحن الراوي بأن يبحث عنه عند الحاج " ونيس الدمنهوري " ، ذلك التاجر الذي يعتاد الجلوس في حانة ليحتسي خمراً. و قد جاء هذا الرمز جيداً لأن من الأقوال المأثورة عن الموت أنه"كأس داير " أو " الموت كأس و كل الناس شاربه " و قد عبر نجيب محفــوظ باقــتدار حيــن صــور الحــاج ونــيس الدمــنهوري ( لاحــظ الــدلالات و الحــاءات التي تحملها كلمة ونيس ، حيث بعد الموت يترك المرء كل شيء ، ولا يكون ونيسه في رحلة المجهول إلا الموت / الونيس وما اقترفته يداه و هل أخذ في حسابه هذه اللحظة أم لا ؟ . ) و قــد أصــر على أنه قبل أن يجيب على أسئلة الراوي أن " تفضــل بــالجلوس أولاً ، و اســكر ثانياً " ص ١٨ . و حين أستنكر الــراوي ذلــك قال له : " هذا شأنك ، و هذا شرطي " ص ١٨ . ثم تــتوالى الأحــداث فــلا يجــد الــراوي بــدا مــن الشــراب

( مهما طال الأمر و الأمل فلابد من الموت ) ولكنه مع الشراب نسى ما قد جاء من أجله ، بل غلبه النوم فنام ، في إشارة جيده إلى أن لنوم قريب الشبيه من الموت و هذا يذكرنا بحديث الرسول ــ ص ــ و الله إنكم لتموتون كما تنامون ، و لكن الفرق بين النوم أن بعده يقظه ، أما المــوت فــلا يقظـــه و لا حــياة . و الــبطل الراوي أثناء النوم حلم ( صـــذ١٨ : ١٩ ) و الحلــم هــو تحقــيق رغبه يعجز الإنسان عن إشباعها .

و هي تنشيط المكبوتات لكي تعبر عن نفسها في غيبة من الأنا أو الرقابة . كما أن الفرد يلجأ إلى الأحلام Dreams حين تلح دوافع معيــنه علــى إشباع و يعجز الفرد في الواقع عن إشباعها . وهنا فإن الفــرد في الأحلام يرى دوافعه و قد تحققت في صورة حدث أو خبر يعيشــها فـــي الحلم . " فكما أن الجعان يحلم بسوق العيش " لأنه في حاجــه إلــيه فــي الواقع ، فكذلك كل فرد يعاني من إحباط في إشباع رغــبات معيــنة ، ولا يخــتلف الأمــر في حالة أحلام اليقظة Day Dream عن أحلام النوم ففي كلا الأمرين يستسلم الفرد لتخيلات يرى فــيها نفســه و هو يحقق آماله و يشبع دوافعه(٥) وهل الحلم الذي رأه الــراوي بعــد أن احتســى الخمــر و أطــاع أمــر الحاج " و نسى الدمــنهوري" : " حلمــت أني في حديقة لا حدود لها تنتشر في جنبتها الأشــجار بوفــرة سخية فلا ترى السماء إلا كالكواكب خلل أغصانها المتعانقة و يكتنفها جو كالطروب أو كالقيم و كنت مستلقيا فوق هضبة مــن الياسمين المتساقط كالرزاز ، و رشاش نافورة صاف ينهل على رأســي و جبيني دون انقطاع . و كنت غاية في الارتياح و الطرب و الهــناء ، و جوقه من التغريد و الهديل و الزقزقة تعزف في أذني ، و ثمــة توافق عجيب بيني و بين نفسي ، و بيننا و بين الدنيا ، فكل شي

حيث ينبغي أن يكون بلا تنافر أو اساءه أو شذوذ ، و ليس في الدنيا كلها واع واحد للكلام و الحركة و نشوة طرب يضج بها الكون (ص١٨ : ص١٩).

و بدون الدخول في " تكتيكات تفسير الأحلام ، فإن المعنى العام من هذا الحلم هو الموت و الحلم به ، حيث الهدوء و السكينة ، و التوافق مع النفس ، و انعدام الصراع مع الآخرين و حالة الشرفانا ، حيث الثبات و الهدوء و الامتثال الراضي لهذا الواقع الجديد ، و المحطة الأخيرة في حياة الإنسان و التنازل طواعية عن الجسد ، و الرضا عن النفس ، بعد أن خبر الإنسان في حياته ضروب كافة المحن و تقلبات الدهر الآن انتهى وقت الصخب و بدانا مرحلة السكينة و انتهاء الحرب سواء أكانت تلك التي تدور بين النفس و بعضها ، أو بين النفس و الآخرين .

و حين استيقظ من النوم رأى رأسه مبتل ( و البلل هنا قد يرمز إلى طقوس الفسل للميت و الجسد قبل أن يواري التراب ) و من المدهش أن زعبلاوي و الموت حاول إفاقة النائم ( الراوي ) و رش الماء / الرزاز قد يفيد أن الموت سيلحقه ، و أن زعبلاوي الذي كان يبحث عنه جاء و جلس على الكرسي ، ولكن وقت أن كان الراوي مستلقيا نائما / حالما . و يؤكد هذا الوصف أن الإنسان ليرى أو يقابل الموت وجها لوجه ، و إنما قد يسمع عن أخباره و معجزاته واعا جبيه من أفراد آخرين . و يدور هذا الحوار الفلسفي ــ وكله يجسد فلسفة الموت ــ بين ونيس و الراوي . " ــ أنا على استعداد لأعطيه ما يريد من نقود .

فقال ونيس بشقاق

ـ العجيب انه لا تغريه المغريات و لكنه يشفيك إذا قابلته .

ـ بلا مقابل ؟

ـ بمجرد أن يشعر بأنك تحبه . ص٢٠

و يكشف الحوار عن أن الموت قدر لازم الإنسان ، " و أينما تكونوا يدر ككم الموت و لو كنتم في بروج مشيده " " و كل من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام " و " كل نفس ذائقة الموت " ( آل عمـــران ــ١٨٥) و أيضا ما تدري نفس ماذا تكسب غدا و ما تدري نفس بأي أرض تموت " ( لقمان ــ ٣٤ ) .

و عمــدا فقد شغلت قضية الموت أذهان الكثير من العلماء و المفكريــن و الفلاسفة و نتيجة لانشغالهم بهذه القضية الميتافيزيقيه قد قدموا اجتهادات شتى عبر التاريخ الكوني الطويل ، و عولجت المسالة ( المــوت ) بكثــير من التوسع على أساس أن الموت نفي للحياة ، و المــوت فســاد للحياة ، و الموت مرادف لعدم الجسد و غير ذلك من قضايا . [٦]

كذلــك فقد شغلت قضية الموت علماء الأحيّاء أو البيولوجيا . فقد عرف " بيتشا " الحياة بأنها مجموعة الوظائف التي تقاوم الموت أو أن الحــياة هي الموت ، و قد وضع العلماء مجموعه من الافتراضات التــي تحدد قرب أو بعد ــ إلى حد ما ــ الإنسان من الموت ، بالرغم مــن أن ذلــك لا يــتعارض مع النظرة الدينية من حيث أن لكل أجل كتاب، و أن الأعمار بيد الله .

و من وجهة نظر علم النفس فقد بحثت مسالة الموت في ضوء الاهــتمام بمشــكلة العلاقــة بيــن العقل و الجسم Mind – body problem و من ناحية أخرى فإن الموت على المستوى السلوكي ــ كف تام و دائم للوعي أو الشعور و توقف المخ عن أداء دور القائد أو

المايسترو بالنسبة للعمليات الحركية و الحسية الوظائف العقلية العليا ، كمـــا يهتم علم النفس الإكلينيكي باستجابة الأشخاص الذين فقدوا عائلا أو حمـــيما ، فقـــد تـــتفاوت هذه الاستجابات من الحزن و الحداد إلى الاكتئاب و الانتحار أو محاولته . (٧)

و لـــيس هذا فحسب ، بل أن الواقع قد عرف أناسا قد أشرفوا علـــى الموت و ذاقوا طعمه ، وقد أخبروا بعد عودتهم إلى الحياة عن مشاهد و خبرات معينة من العالم الآخر ، " بل تكونت جمعيه تسمى " خبرات المشرفين على الموت " و أصدرت مجلة نصف سنوية مازالت تصـــدر إلـــى الآن ، ناهضة على تسجيل خبرات هؤلاء الأفراد الذين أشـــرفوا علـــى الموت فعلا ، و لكن تم علاجهم و عودتهم مره أخرى إلـــى لحـــياة . ونتفق في أن هذه الخبرات ما هي إلا مجرد هلوسة من أنـــاس يجـــدون أنفســـهم في مواجهة الموت ، و بلا شك فهم متأثرون بالمـــناخ الثقافي و الديني و التنشئة الاجتماعية في المحيط الذي تربوا فيه . (٨)

و أخـــيرا فقـــد أحسن محفوظ في تناوله لهذه القضية الفلسفية الشائكة من خلال تصويرها بحبكه قصصية رائعة .

## مراجع القراءة :

١- نجيب محفوظ: قصة زعبلاوى ، مجموعة : أهل الهوى ، روايات الهلال ، ع : ٤٧٩ ، نوفمبر ١٩٨٨ ، القاهرة

٢ ـ خيري شلبي : تقيم لكتاب " فن الحزن " مكتبة الدراسات الشعبية العدد : ٥ ، مايو ١٩٩٦ الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ص ٥ .

٣ ـ كرم الأبنودي : فن الحزن المرجع السابق .

٤ ـ Drake , Ri Abnormal Psychology , Little field Adams pco , 1966 , P : 94

٥ ـ أحمد محمد عبد الخالق : قلق الموت ، عالم المعرفة ، الكويت ١١١ ، مارس ١٩٨٧ ، ص١٤ .

٦ ـ فرج طه : الشخصية و مبادئ علم النفس ، مكتبة الخانجى ، ١٦٧٩ ص٦٥ ، القاهرة .

٧ـ جاك شرون : الموت في الفكر الغربي ، ترجمة كامل يوسف ، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام ، عالم المعرفة ، الكويت ، إبريل ١٩٨٤ .

٨ـ أحمد محمد عبد الخالق : المرجع السابق ص ١٥ : ١٦ .

٩ ـ عبد الرؤوف ثابت : مفهوم الطب النفسي ، الأحلام، ١٩٩٣ من ص ٤١٨ : ٤٢٤ ، القاهرة .

-٥-

# أهل الهوى

# نجيب محفوظ (أهل الهوى)

## - أهل الهوى -

## مجموعة قصصية ،

في هذه القصة الرائعة يلخص نجيب محفوظ أزمة الوجود الإنساني وكافة التساؤلات التي تحيط هذا الوجود ، حيث الماضي المجهول ، والمستقبل الغامض ، والحاضر الذي لم يتبلور بعد ، أو ضائع بين هذا وذاك وقد عبر عن هذه الفلسفة من خلال مناخ قصصي رائع ولكنه رمزي إلى أبعد الحدود مستخدما العديد من الرموز والتي تعد ضرورة وأساسا للوجود الإنساني على سطح الأرض ...

( فالقبو دائم الظلمة ) إنما هو إشارة رمزية جيدة إلى الرحم وما يتخلق داخله من خلق لحياة جديدة ، تماما فالقديم يكون انبثاقا وانبعاثا لحياة جديدة ، و(نعمة الله) ما هي إلا رمز للحياة ، حيث القوة المخيفة والأنوثة الناضجة المكشوفة ، وتعلق الآخرين بها إضافة إلى قدرتها على السيطرة على الرجال المختفين داخل القبور ، ولعل المقصود بهذا الرمز (الرجال المختفين داخل القبو ) إشارة رمزية إلى عملية الإخصاب ، ولقاء الرجل والمرأة ، وما ينتج عن هذا اللقاء ( داخل فوهة القبو دائمة الظلمة ) من عملية تناسل وخلق جديد للحياة . كما أن رموز ( رياض الدش الكواء البلدي ) يرمز إلى أن الإنسان يحتاج ضمن ما يحتاج إلى الكساء لكي يستر جيده من العواصف والأنواء ، حيث أن الفرد يخرج من الفوهة دائمة الظلمة عاريا .

---

روايات الهلال ، العدد ٤٧٩ ، نوفمبر ١٩٨٨ من ص ١٥٧ : ١٨٧

كمـــا أن (حلومـــة الجحش بياع الفول ) رمز جيد إلى الطعام ، ولعل الاكـــتفاء بهذيـــن الرمزين / مع رمز الحياة وفوهة القبو / يؤكد الحديث الشـــريف عـــن النبي( صلى الله عليه وسلم ) ما معناه ، أن ابن آدم لا يحـــتاج في مثل هذه الحياة إلا ثوب يرتديه فأبلاه ، وطعام تناوله فأفناه .. أمـــا (مخلـــوف زيـــنهم ) والـــذي يعمـــل فـــي العيادة فنظن أنه رمز ( للعـــادات والتقالـــيد والأعـــراف ) لأن هذا الوليد حين جاء حمل إلى العـــيادة ، وبعد ذلك (دخل حافيا في جلباب قديم أهداه له مخلوف زينهم ) ( ص١٥٩ ).

ولعـــل رمـــز (الجلباب القديم ) يرمز وبصوره جيدة لعملية التنشئة الاجتماعية وما يرافقها من قيم وعادات وتقاليد ومعايير اجتماعية موجودة قـــبل أن يولـــد الفـــرد ،وان عملـــية (التطبـــيع أو التنشئة ا الاجتماعية Socializatio تفرق بين الأفراد وليس فقط بين المجتمعات ، إنما أحيانا داخـــل المجتمع الواحد ،حيث ينسأ من الثقافة العامة ثقافات فرعية ، ولكي يحصل على دعم وتقدير الجماعة عليه في كل الأحوال الالتزام بالمعايير الســـائدة ، ذلك لأن الوجود الإنساني في البداية يكون مشروعا ، ولكنه لا يكـــون وجـــودا حقـــا إلا من خلال دعم ومساندة الآخرين . أما الطبيب محســـن زيـــان ، فـــيرمز إلى الضمير وقد صوره محفوظ بهذه العبارات ( رجـــل كهل فقد في الحرب ابنا في مثل سنه ، ولا ينقصه العطف على أي شاب رغم إيلافه مناظر العناء والمرض ) ( ص١٥٨ ).

ولـــذا حيـــن وجـــد كدمـــات فـــي الرأس والجبين نتيجة ضربات سبه قاتلـــة / ولعـــل محفوظ يرمز بهذه الضربات إلى عملية الولادة وإيلامها ســـواء بالنســـبة للولـــيد الـــذي يصـــرخ محتجا على عملية تغيير المناخ الاعـــتمادية اللذيـــة ، إلـــى حياة الكدر والكفاح ، فضلا عن عذاب الأم ،

ناهـيك عن أن بعض الأمهات قد يفقدن حياتهن من جراء هذه العملية جد المؤلمـة ، إلا أنه عذاب لذيذ ( هي الطرفين ـــ الأم ووليدها ) ، قال علينا أن نـبلغ الشرطة ، فقال مخلوف زينهم بامتعاض ( رمز العادات والتقالـيد الضـاربة بجورهـا ( أنهم ذئاب القبو ، وستغضب نعمة الله ) (ص ١٥٨ ) .

أمـا ( محفوظ فرج الله ) فقد رمز به إلى العمل وضرورته للإنسان لأنـه مـن خلال العمل ، يشبع الفرد رغباته واحتياجاته ، وفي نفس الآن يحقـق ذاتـه selfactvalztion حيث يخلف الوجود وهو أفضل حالا ممـا قدم إليه ، ولعل حديث الرسول ـصلى الله عليه وسلم ـ والذي يعنـي أنه إذا أدرك أحدكم الموت وفي يده فسيلة واستطاع أن يزرعها أو يغرسـها فليفعل ، في إشارة واضحة إلى عدم قطع الصلة بجميل الحياة ، والإضـافة إلـيها من أجل الأجيال القادمة ، وقد أسن محفوظ حين صور الرجل ( رمز العمل ) بأنه في حركة دائبة ولا يكف عن العمل حتى وهو منهمك في حوار مع نعمة الله (ص١٥٩) .

أما الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية ( فهو يرمز لأجهزة الأعلام والتنشئة الرسمية والتي تحاول (صب ) الأفراد في قوالب وأطر محددة ، كمـا أن هـذه الأعـلام تعمل جاهدة على تعديل أو إكساب أو تغيير الاتجاهات Attivdes وفقا لمتطلبات المرحلة التاريخية التي يمر بها المجـتمع ، ولذا فقد صور محفوظ هذا الرمز بأنه ( يتلقى منها نعمة الله رمـز الحـياة أو للسلطة القائمة ) المعونة له وللزاوية في أيام محددة . أنهـا تغطـي طغـيانها المخـيف بنغمات الكرم تسكت بها ذوي الألسنة القـادرة ، وتمارس في الدين طقوسا وثنية فلا تأبى ـ رغم جبروتها ـ أن تؤنس حدتها الداخلية الاحجبة و التعاويذ ) ( ص ١٦١ ) .

ولعـــل العـــبارة الســـابقة تعنـــي ضمن ما تعني أن السلطة قد تردد شـــعارات معينة ( في الظاهر ) وهى تمارس أمور أخرى في الواقع بعيدة تمامـــا عـــن الشعارات ، ويظل الفارق بين القول والفعل ظاهر وقائم ، ولذا فحين دار حوار بين نعمة الله والشيخ جابر عند المعين ( ولعل الاسم يرمز إلى الجبر وإعانة أجهزة الإعلام في وظيفتها ولاحتفاظ بمناصبها) فـــي شـــأن تعليم (عبد الله ) ( رمز لأي إنسان في هذا الوجود ) طلبت مـــنه أن يعلمـــه من أمور الدين ما يجعله يخاف ويكفي هذا ) ( ص١٦١) ولعـــل هـــذا التصـــوير الجـــيد لأجهـــزة التنشـــئة الرسمية ( مدارس ــ جامعـــات ــ صـــحافة ــ أعـــلام ــ .... الخ ) للأفراد وإرغامهم على ( ســـماع ) حكايات ، وأقوال محددة . وقد عبر محفوظ عن ذلك باقتدار حين صور الأفراد في إيجاز رائع عظيم .

( ودهـــش كثـــيرون عـــندما رأوا الفتى يساق كل عصر إلى الزاوية لتلقي دروس في الدين ، وقال السذج أنها امرأة شريرة طاغية ، وفي ذلك شك ، ولكنها لا تخلو من جانب خير ) ( ص١٦١ )

أمـــا ( الشـــيخ كافور ) فنظن أنه رمز جيد للموت والفناء ولذا فمن أقواله المأثورة ( لا يملك إنسان ما يستحق أن يحسد عليه حقا )(ص١٧٣)

كمـــا أن الشـــيخ كـــافور من رجال الله (ص١٧٥) ولذا فقد صوره محفـــوظ بأنـــه الواقـــع الحقيقـــي في هذا الوجود ، ويذكرنا ذلك بحديث الرسول – صلى الله عليه وسلم ـــــ كفى بالموت موعظة . وحين مرض ( عبد الله ) وبدأ يتخبط واستشار عم مخلوف ، واقترح عبد الله ضمن ما اقـــترح أن يذهـــب إلـــي الشـــيخ جابـــر إمام الزاوية ، رد عليه بغضب ( لا هـــو إمـــام ولا الـــزاوية ، انـــه رجل جاهل عينته نعمة الله لخداع

الســذج ، وهي التي شيدت الزاوية من مال حرام للخداع أيضا ، أنها لعبة مكشــوفة ، ولن تجد عنده رأيا ولا شفاء عدا بعض السور الصغيرة التي كــان يــرتلها فــي المقابــر كلمـــا جاء موسم دون أن يفقه لها معنى ) ( ص١٧٥ ) . أي أن التلقين من قبل الأجهزة الرسمية لا يمنع من حقيقة مواجهة الواقع ، وانكشاف زيف الشعارات والادعاءات في يوما ما ، كما أن هـــناك الكثـــير مـــن التساؤلات التي تعجز ــ حتى الحياة ــ من تقديم إجابـــات شـــافية لها ، فرغم أن نعمة الله تجيد استخدام السحر إلا أن عم مخلوف غضب حين سمع عبد الله يردد اسمها ـــ ــ ت تت ـــ ـــ

ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ

ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ وقد صور نجيب محفوظ وباقتدار لقاء الموت مع الإنسان في عبارات موجزة تصل إلـــى درجة الإعجاز ، وقمة النضج الفلسفي والإنساني حين طلب مخلوف مـــن عـــبد الله أن يمد يده لكافور والذي مد له يدا قبل أن يمدها عبد الله ( فصدع بالأمر وهو يتلقى قشعريرة هيبة أو خوف . وسرعان ما سرت من راحة الشيخ إليه برودة لطيفة أنعشته فتركز في أذنيه ، ومضت دقائق نســـى فيها كل شئ حتى ما جاء من اجله كأنما امتص الرجل وعيه كله ، ثم تردد الصوت العميق الخافت قائلا : ــ ستعرف ما تسأل عنه في حينه بالتمام والكمال ) ( ص ١٥٧ )

أمـــا هجرة الحي والغيرة التي دبت في (عبد الله ) حين وجد نعمة الله الفـــنجري تجـــالس شاب غيره (ص ١٧٦ ) ، وقرر الرحيل وخرج وقـــد (شـــيعته نظرات متضاربة من الحياد والشماتة والكراهية والسرور والحـــزن واصـــل المســـير حـــتى غيـــبه المنعطف الأخير عن الحارة إلـــي الأبـــ )(١٧٨) رمز واضح وجيد لاختلاف الموقف من الموت تبعا

لمكنة الفرد في الجماعة وما قدمه خلال رحلته من أعمال وعلاقات ، ولذا فـــأن الموت / الفقد قد يترك آثارا لا تندمل في النفوس ، وقد يمر سريعا وبـــدون أي اثـــر يذكـــر عـــند الـــبعض الآخر ، وقد يفرح البعض لمدة ( الشخص )

تلـــك كانت أبرز الرموز التي احتوتها قصة (أهل الهوى ) ونظن أن اســـم القصـــة إنما يرمز بأهل الهوى إلى أهل الدنيا وكل إنسان يدب على هـــذه الحياة ، وما يخوضه من مجهول وأسئلة وإحباطات واستفسارات لا تجـــد أجوبة مريحة شافية أما القصة نفسها فتصور رجل خرج من فوهة قبو مظلم ، وفيما يبدو تعرض لاعتداء من ذئاب القبو والتابعين لنعمة الله والتـــي تجمـــع بيـــن الأنوثة الطاغية والمظهر الذكري الحاد . وقد صور وباقـــتدار نجيب محفوظ مراحل نمو الإنسان على سطح الأرض ، فخرج الوليد من القبو دائم الظلمة زاحفا على أربع وعاريا (ص١٥٧)

ولعـــل هذه المرحلة قد عبر عنها (أر يكسون ) بأنها مرحلة : الثقة والأمان في مقابل الشك من الآخرين ، صحيح أن لحظة الميلاد هي نقطة البداية لهذه المرحلة إلا أننا نستطيع أن نعتبر أنها استمرار لما قبلها ، فما زال الإنســـان غـــير مستعد للوجود الذاتي المستقل ، فهو وأن كان قد بدأ فـــي تلقـــي الهـــواء والمـــاء والغـــذاء مـــن فمه بدلا من الحبل السري ( القـــبو دائـــم الظلمـــة ) إلا أنـــه يعـــتمد اعـــتمادا شبه كامل على الأم ( أو مـــن يقـــوم مقامهـــا فـــي توفـــير احتـــياجاته ، ولهذا فأن المجتمع (مـــع التطور ) قد بدأ في خلق كيانات تنشأ لتلبية احتياجات الطفل ، وهو مـــا عبر عنه محفوظ في الكواء والفوال وجابر عبد المعين وغيرهم . بيد أن الـــتحدي أو المشكلة التي تواجه الإنسان أبان هذه المرحلة هي :إمكانية إيجـــاد الـــثقة والأمان الأساسيين في مقابل الشك ، ويسمى أر يكسون هذا

الـتحدي Nucleat conflict ، وتقـابل المرحلة الفمية عند فرويد ، حيث يكون العضو الغالب في النمو في هذه المرحلة هو الفم oral

أما المرحلة الثانية من مراحل النمو فهي مرحلة الاستقلال في مقابل الخجـل أو الشـك فـإذا اطمـأن الطفل إلى الوجود الإنساني وأشبعت رغـباته ، تمامـا كما صوره نجيب محفوظ ، حيث أطلقت علبه نعمة الله (عبد الله ) أي أعطته الهوية / السم ، وارتدى الجلباب (من عم مخلوف ) وتـناول الطعـام فـأن الفـرد فـي هذه المرحلة يتخلى عن اعتماديته على الغير ، بل أن نمو يسمح له أن يغذى نفسه دون الاعتماد على ثدي الأم أو يداها ، كما أنه يستطيع أن يقف على رجليه ، بل ويبتعد خطوات عن الأم ويحاول في اكتشاف الأشياء الموجودة في العالم الخارجي ، ويبدأ فـي بلورة أرادته ، وأن ينتقل نفسيا عن الاندماج في الأم ( حيث يعتقد فـي الـبداية أنه وأمه جسد واحد ) لكن في هذه المرحلة تبدأ في التبلور ملامح الاستقلال

أمـا المـرحلة الثالثة من مراحل النمو فتعني : المبادرة ، فبعد أن يكون الطفل قد استطاع تأكيد ذاته ووقف على رجليه واستقل عن ارتباطه الكفلـي بأمه فأنه ينتقل إلى التـحدي التالي والذي يدور حول ما الذي سـوف يفعله بهذا الاستقلال ، كما أنه كان يظن أن ما لديه من الأعضاء موجـود عـند الآخريـن ، وقد عبر عن هذه المرحـلة نجيب محفوظ (ص١٥٩ ) .

حيـن أخـذ ( عـبد الله ) يسير ويراقب الآخرين ، رغم أنه كان لا يعرف رموز وأسماء والأشياء الموجودة في البيئة الخارجية .

أمـــا المـــرحلة الـــرابعة فيطلق عليها أو يكون المثابرة ، حيث يبدأ الأنـــــــا الأعلى في البروز ، ولا تسيطر منطقة جسدية معينة على النمو في المرحلة إلا ما كان الفم ، في المرحلة الثانية تعليمه التحكم في عملية الإخـــراج ، وفي المرحلة الثالثة القضيب أو اكتشاف البيئة وأهم الفروق بين الجنسين ، لكن في هذه المرحلة يبدأ التفتح والتعلم ، حيث ينقل الأب خـــبراته إلى ابنه وتفعل نفس الشيء الأم مع ابنتها ، وهذا ما عبر عنه نجيب محفوظ باقتدار حين اصطحبت نعمة الله ، عبد الله إلى الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية وطلبت منه أن يفقه في الدين لأنه نسي ضمن ما نسي الدين فاستعاذ الرحل من الشيطان وواصل مهمته ( ١٦٠:١٦١)

أمـــا المـــرحلة الخامســـة من مراحل النمو فيطلق عليها أريكسون مـــرحلة البحـــث عن الهوية حيث يطفئ الجسد مرة أخرى وتبرز الرغبة الجنســـية فـــي الطرف الآخر من الجنس المغاير ، وتدور كافة التساؤلات التـــي قـــد تعصف بكيان الفرد فإذا كان في المرحلة السابقة قد تلقى كافة العلـــوم والمعارف والعادات دون سؤال أو تمحيص فأنه في هذه المرحلة يشك ويتساءل ويعيد الثقة والأمان في كل شيء ،

من أ نـــــــا ؟؟

سؤال عويص يبحث عن إجابة ، وليس هذا فحسب بل أن السباب في هـــذه المرحلة يتساءل عن ملامح العمل ، والمهنة التي سيلتحق بها ومدى إشـــباعها لرغـــباته ، وكـــذا الشـــروط الواجـــب توافرها في الزوجة ، والانفصـــال عـــن الأســـرة ، والتساؤل الذي يعصف بكل شيء كان في الماضي قد تلقاه بدون تمحيص . وقد أحسن نجيب محفوظ حين عبر عن هذه المرحلة / الأزمة /وقد صورها في الجمل الآتية : -

( فاشتدت حيرته ومضى يعرف الحياء ، ويداري انفعالاته ويأسف بعد ارتكاب الخطأ ) ص١٦٢

( أي فرد يجهل مستقبله أما أنا فأجهل ماضي ومستقبلي حقا ) ص١٦٢

أما المرحلة السادسة فهي الألفة في مقابل العزلة ، حيث تدور المعركة في هذه المرحلة حول تأكيد الانفصال والاستقلال عن الأسرة والبدء في تكوين عش الزوجية الدافئ ، ولذا يظهر التحدي : هل ينجح الإنسان في تكوين علاقة حميمية بها ألفة مع آخر أم يفشل بالإحساس والعزلة والوحدة . وبناءا على نجاح الإنسان أو فشله يكون نموه صعودا أو تثبيتا أو حتى نكوصا .

وقد عبر عن ذلك باقتدار حيث ذكر أن نعمة الله قد أغرته بالذهاب إليها ، ومارس معها الحب وحين قال له : أخاف النار ، ابتسمت بحنان وقالت له : ( عندما تهب المرأة نفسها فالعلاقة شرعية مباركة )

أما المرحلة السابعة : وتعني الإنتاج في مقابل الركود ، فبعد أن يمارس الفرد استقلاله ، ويختار العمل والزوجة فأنه يصل إلى نقطة هامة جدا حيث يثور التساؤل (وماذا بعد ؟) وهنا يبرز التحدي الذي يجعله يبحث عن الهدف الأوسع من دائرة الأسرة المحدودة ، فهو يبحث عن الشيء الذي يستطيع أن ينجزه على مستوى أعلى من نقطة الاهتمام بالأسرة ، إذ لابد أن يبحث عن المعنى الأوسع والشامل لوجوده ، عمل وعمل ، زواج وتزوج ، وأولاد قد أنجب أو يملك ، لكن ما فائدة كل ذلك ، ويطلق البعض على هذه المرحلة اسم : أزمة منتصف العمر ، وهي أزمة قريبة من تساؤلات المراهقة ، بيد أنها تكون في الأربعين وتهدف ى معرفة الفلسفة من الوجود ومن كل شيء . فرغم أن عبد الله

شرب من كأس الحنان والحب حتى الثمالة من نعمة الله إلا أنهما لم ينتبها الى جريان الزمن من حيث مضت أيام الصيف / ويقصد بها أيام الرغبة والـــنزوة والطـــيش والحـــر الخـــانق ) وتسلل الخريف بخطاه الخفيفة ، وخالطـــت أحاديث الحب هموم الحياة وأخذ كل منهما يتساءل عن أصل الآخـــر ، ومـــا معـــنى أن تكـــون نعمة الله قوية ، وهو مجهول الماضي والمستقبل ص( ١٦٦:١٧١)

أما المرحلة الثامنة والأخيرة من مراحل النمو فتعني التكامل ، هنا يكون الفرد قد عبر عن جوهر وجوده ككيان حضاري له تاريخ ينقله عبر الأجـــيال بالتعلـــيم والممارسة ، ويكون الفرد قد عاش حياته وواجه كافة التحديات ، وانهزم كثيرا ، وأيضا انتصر كثيرا ، وحقق ذاته وحقد وحسد وتمـــنى زوال نعمة الغير ، وأخذ وأعطى ، ويكون قد أعطى دون انتظار لأخـــذ أو قد يكون العكس ، وهنا قد يكون الفرد راضيا عن نفسه ، وقد يكـــون ســـاخطا عـــن نفسه ، ولأنه عبر عن كل ما في نفسه من رغبات وأسبع كل ما لديه من احتياجات ومارس الشيء ونقيضه فأطاع وعصى وطمـــع في الجزاء وخاف من العقاب ولم يعد لديه بقايا أو حتى رغبة في الصـــراع ، لقـــد جرب كل شيء ، وسكر من كل شيء واقترب من حالة الســـكون التام أو السكينة ، ويبدأ في التفكير جديا في الموت ، على عكس بعـــض الأفـــراد الذين يخشون مجرد اسم الموت . ، فمرحبا به ، ذلك أن الـــنظر إلى جوهر الوجود تؤكد : أن كل من عليها فان ، وأن القديم لابد أن يـــرحل ويترك مكانه للجديد ، ولا شيء يخلد أبدا سوى الله ، والرحم الـــذي يخـــرج مـــنه المولـــود يشبه القبر الذي تعود إليه بعد طول عناء وصـــراع وكد وسعادة وكدر ومرض وغرور ، فذهب ( عبد الله ) بنفسه يبحـــث عن الموت وحين قال له : ( الحق أنك انتهيت سرت الحقيقة في

ذاتهـا كالسـم فلـم يشـك فـي أنـه انـتهى ، وأن حياته في جوارها ( يقصد الدنيا / الحياة / نعمة الله )

توشـك أن تنتهي أيضا . ولكن كيف يمكن أن تتنكر له بعد ذلك العهد الطويـل من المعاشرة والعواطف المتأججة والحب العميق المتبادل ... ها هـو وجه جديد يطالعه بلا تردد ولا حرج ولا مبالاة ، يتجسد في الرفض والإنكـار والقسـوة ، كأنمـا لا ماضي له ولا ذكريات ، ولا وجدان ولا ضمير ولا ذوق ولا حياء ) (ص١٧٦:١٧٧)

فقـد قرر الرحيل ، وقال بعبارة مقتضبة ( أستودعك الله) وقد أحسن محفـوظ حيـن صور لحظة الرحيل وأن رياض الدبش الكواء وحلومة الجحـش ( بـائع الفـول ) يود عونه ، في إشارة إلى أن الكساء والطعام موجـود ، وأن كل إنسان يأخذ كفايته أو ما هو مقدر له فإذا انتهى نصيبه فأنـه يـرحل ، ومـثلما أشـبع الكسـاء والطعام احتياجه ، سيظل يشبع احتـياجات الآخريـن ، وأن عـبد الله ( واصل المسير تتابعه الأعين من النوافذ والدكاكين والطريق . شيعته نظرات متضاربة من الحياد والشماتة والكراهية والسرور والحزن . واصل المسير حتى غيبه المنعطف الأخير من الحارة إلى الأبد ) ( ص ١٧٨ )

فهـل هـناك أروع مـن هـذا التصوير الفلسفي الرائع للغز الوجود الإنساني على سطح الأرض ؟!

# المراجع

1— Erikson ,E.H :Childhood And Society
New York , Norton, 1963

٢ـ محمد شعلان : الاضطرابات النفسية في الأطفال ، الجزء الأول ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، ١٩٧٩

